

العصر العباسي الأول
(١٣٢هـ / ٢٣٤هـ)

obeikandi.com

العصر العباسي

وهو العصر الذي بدأ في التاريخ السياسي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية الكريمة ، والتي توافق سنة تسع وأربعين وسبعمائة للميلاد "٧٤٩م" وذلك بسقوط الدولة الأموية في الشام ، وقيام الدولة العباسية في الكوفة - يعنى العراق وينتهي العصر العباسي في التاريخ السياسي بسقوط "بغداد" على يد "هولاكو" قائد "التتار" وكان ذلك في سنة ست وخمسين وستمائة "٦٥٦" للهجرة والتي توافق سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف للميلاد "١٢٥٨".

وهذا التحديد عرّف قليل الصلة بالحقيقة التاريخية ، أن هذا العصر قد بطل أن يكون عباسياً منذ أيام الخليفة المتوكل الذي جاء إلى عرش "بغداد" في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة "٢٣٢هـ" ، والذي يوافق سنة سبع وأربعين ولثمانمائة للميلاد "٨٤٧م" ، والنوادر والأثرى يكون الدولة من جميع جوانبها ، ثم لم يكن للخليفة المنصور على عرش "بغداد" بعد الخليفة المتوكل من الأمر شيء ، وكثرت الدول والدويلات في العصر الذي سمّيه "عباسياً".

كان بعضها دولاً غير عربية ، ولا "عباسية" تنبع في أطراف الخلافة ثم تستقل بما تحت يدها ، وربما مذهب بعضها نفوذاً إلى "بغداد" ذاتها

يُبد أن حفظ "الأدب" كان غير حظ السياسة ، حيث إن الخصائص "العباسية" في الأدب طلت سائدة في النتاج الوجداني من الشعر والنثر إلى سقوط "بغداد" في يد "التتار" بقيادة "هولاكو" ، ثم إلى الفتح العثماني للبلاد العربية سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة للهجرة "٩٢٣" ، والتي توافق سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف للميلاد "١٥١٧م" ، ثم إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري والذي يوافق القرن التاسع عشر الميلادي .

وهناك كثرة كاثرة من النثرين والناظمين ينهجون النهج العباسي في الأدب . أصالة وتقليداً ، والأصيلون من هؤلاء الأدباء الذين يُخلّدون في حياتهم الأدبية.

ويقول الدكتور "عمر فروخ" : "أما في هذا الكتاب فسنجعل "العصر العاسي"
يتّصل إلى السنة التي فتح فيها السلطان "سليم الأول" العثماني "مصر" سنة "٩٢٣" هـ /
١٥١٧ م ، وقضى على المنصب الرمزي الذي كان العباسيون قد احتفظوا به في "مصر" بعد
سقوط دولتهم في "العراق" ، هذه الحقبة الطويلة من سنة "١٣٢" هـ إلى سنة "٩٢٣" هـ نقسم
من الناحية السياسية والأدبية أيضاً فترات متفاوتة في الطول وفي الأهمية فإذا نحن اعتبرنا
تلك الفترات وما كان فيها من الدول التي اتسع نفوذها في أقسام منبانية من بلاد الخلافة
الإسلامية وجدناها التالية :

- ١ - الفترة العباسية الأصلية (نفوذ فارسي ثم تركي) ١٣٢ - ٢٣٤ هـ .
- ٢ - عصر الدويلات ودولة بني بويه (فارسية شيعية) ٢٣٢ - ٤٤٠ هـ .
- ٣ - دولة السلاجقة (تركية سنية) ، ٤٢٩ - ٥٧٩ هـ .
- ٤ - الأتابكة آل زنكي (من السلاجقة) : ٥١٦ - ٦٣٩ هـ .
- ٥ - الدولة الأيوبية : ٥٥٥ - ٧٣٢ هـ .
- ٦ - دولة المماليك (المماليك البحرية) : ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ .
- ٧ - المماليك البرجية : ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ .

الحقبة العباسية الأصلية

وفي هذه الحقبة انتقلت الخلافة في سنة "١٣٢" والتي توافقت سنة "٧٤٩" للميلاد من الشام إلى العراق ، وذلك من بنى أمية الذين كانت دولتهم عربية خالصة وعصية إلى بني العباس الذين أصبحت دولتهم دينية جامعة ، وقد كانت البداوة غالبية على المجتمع الأموي تنبذ في المثل العليا التي كانت بدوية جاهلية ، وفي اللغة أيضاً ، فقد كان عدد من معاني الأدب إسلامياً جديداً أما الأسلوب الذي استهوى الأمويين فقد ظل جاهلياً ، وأما المجتمع العباسي فقد استبحرت فيه الحضارة ، وانتشر الترف ، وإن كانت طبقات كثيرة قد ظلت بعيدة عن تلك الحضارة . وعن ذلك الترف ، أما الدولة والحكم فقد كانتا متنازعتين بين أصحاب ثيابين : بين العلويين الشيعة يطاهرهم "الفرس وعرب الجنوب عامة" ، وبين "العباسيين بعضهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة" .

وقد كان المقصود من الدعوة إلى آل محمد أن يتولى العلويون الخلافة ولكن العباسيين وهم من سل "العباس" عم الرسول - ﷺ - كما كان العلويون وهم من نسل علي بن أبي طالب - عليه السلام - وبالأحرى هم من نسل "أبي طالب" عم الرسول أيضاً استطاعوا أن يستبدوا بالأمر . وأن يباعدوا واحداً منهم . وهو "أبو العباس عبد الله بن محمد ابن عم علي بن عبد الله بن عباس" الشهير بـ "أبي العباس السفاح" . وتفتح السدح "بني أمية" وأنصارهم بالقتل والتشريد . حتى خلع الأمر لسي العباس ، وفي هذه الأثناء كان السفاح قد اتخذ "الكوفة" عاصمة له ، ثم هجرها ، لأنها كانت مركزاً للعلويين وأنصارهم . واتخذ "الأنبار" على "الفرات في شمالي العراق" عاصمة جديدة . وحكم "السفاح" أربع سنوات ، ثم توفي سنة ست وثلاثين ومائة للنهجرة والذي يوافق سنة أربع وخمسين وسبع مائة للميلاد ، فخلفه أخوه "أبو جعفر المنصور" ، وكان أسن منه ، ولكن كانت أمه أمة ، فتأخر السفاح ؛ لأن أم السفاح كانت حرة

وقد كانت "الأنبار" متطرفة في "العراق" ، فبنى "المصور" بغداد سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ، وجعلها عاصمة الدولة العباسية ، بعيدة عن الشام ، ولكنها كانت قريبة من "فارس" ، ومن الجوالى الفرس في العراق نفسه .

١ . وقد نبتت في أيام "المنصور" حركات دينية ، مثل : "الرواندية" ، وحركة "سُنْبَاد" اللتين كانتا تعملان طابعاً مجوسياً من الشيوع في المال ، والنساء ، وطابعاً وثنياً من تأليه البشر ، فأخذ "المصور" هذه الحركات بالشدة وقتل رؤساءها والذاعين إليها وكثيراً من أنصارها .

ولعل أهم ما حدث في أيام "المنصور" أن تولى الوزارة "خالد بن برمك" . ثم استمر بعده ابنه "يحيى" ، وحفيده : "الفضل" ، و"جعفر" ، يتولونها حتى نكّبهم "هارون الرشيد" سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافقت سنة ثلاث وثمانمائة للميلاد . بعد أن استبدوا بكل سلطة في الدولة ، وبعد أن طغت أسباب الحياة الفارسية على "بغداد" : فانصرف الناس بعد مكة "البرامكة" عن أوجه الحضارة الفارسية ، وعادوا إلى التطاهر بالليل إلى الدواة ، وإلى العصية العربية

منهم من فعل ذلك خوفاً من أن يتهم بمثل ما اتهم به "البرامكة" ، فيصير أمره إلى ما صار أمرهم إليه . ومنهم من فعل ذلك مضاعمة لأرباب الدولة ، حيث إن الناس على دين ملوكهم

وكثر العمران في أيام "هارون الرشيد" ، واستبحرت الحضارة ، وعمّ الثرف وازدهرت العلوم والآداب ، وعظمت هيبة الدولة ، وبعد عصر "هارون الرشيد" ذروة القوة السياسية للعرب ، وأزهى ما بلغت إليه عصورهم في العمران والحضارة ، والآداب والعلوم .

وخلف "هارون الرشيد" ثلاثة من بنيهِ : "الأمين" ، و"المأمون" ، و"المتعمم" ، وكان "الرشيد" قد قسّم الإمبراطورية سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافقت سنة واحد وتسعين وسعمائة للميلاد بين "الأمين" و"المأمون" ، فأوصى للأمين بالملك على "غرب الإمبراطورية" : "بغداد وما يقع غربها" . حيث يسود العنصر العربى ، ويكثر أنصار

الحقبة العباسية الأصيلة

وفي هذه الحقبة انتقلت الخلافة في سنة "١٣٢" والتي توافقت سنة "٧٤٩" للميلاد من الشام إلى العراق ، وذلك من بنى أمية الذين كانت دولتهم عربية خالصة وعصية إلى بني العباس الذين أصبحت دولتهم دينية جامعة ، وقد كانت البداوة غالبية على المجتمع الأموي تنبذ في المثل العليا التي كانت بدوية جاهلية ، وفي اللغة أيضاً ، فقد كان عدد من معاني الأدب إسلامياً جديداً أما الأسلوب الذي استهوى الأمويين فقد ظل جاهلياً ، وأما المجتمع العباسي فقد استبحرت فيه الحضارة ، وانتشر الترف ، وإن كانت طبقات كثيرة قد ظلت بعيدة عن تلك الحضارة ، وعن ذلك الترف ، أما الدولة والحكم فقد كانا متنازعين بين أصحاب نيارين : بين العلويين الشيعة يظاهروهم "الفرس وغرب الجنوب عامة" ، وبين "العباسيين بعضهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة" .

وقد كان المقصود من الدعوة إلى آل محمد أن يتولى العلويون الخلافة ولكن العباسيين وهم من نسل "العباس" عم الرسول - ﷺ - كما كان العلويون وهم من نسل علي بن أبي طالب - عليه السلام - وبالأحرى هم من نسل أبي طالب "عم الرسول أيضاً استطاعوا أن يستدوا بالأمر ، وأن يبايعوا واحداً منهم . وهب أبو العباس عبد الله بن محمد ابن عم "علي بن عبد الله بن عباس" الشهير بـ "أبي العباس السفاح" . وتفتح السفاح "بني أمية" وانصارهم بالقتل والتشريد ، حتى خلع الأمر لسي العباس . وفي هذه الأثناء كان السفاح قد اتخذ "الكوفة" عاصمة له ، ثم هجرها ، لأنها كانت مركزاً للعلويين وانصارهم . واتخذ "الأنبار" على "الفرات في شمالي العراق" عاصمة جديدة ، وحكم "السفاح" أربع سنوات ، ثم توفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة والذي يوافق سنة أربع وخمسين وسبع مائة للميلاد ، فخلفه أخوه "أبو جعفر المنصور" . وكان أسس منه ، ولكن كانت أمه أمة ، فتأخر السفاح ؛ لأن أم السفاح كانت حرة .

وقد كانت الأنبار متطرفة في العراق ، فبنى المنصور بغداد سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ، وجعلها عاصمة الدولة العباسية ، بعيدة عن الشام ، ولكنها كانت قريبة من فارس ، ومن الجوالى الفرس في العراق نفسه .

١ . وقد نبتت في أيام المنصور حركات دينية ، مثل : الرواندية ، وحركة سنيان اللتين كانتا تحملان طابعاً مجوسياً من الشيوع في المال ، والنساء ، وطابعاً وثنياً من تأليه البشر ، فأخذ المنصور هذه الحركات بالشدة وقتل رؤساءها والداعين إليها وكثيراً من أنصارها .

ولعل أهم ما حدث في أيام المنصور أن تولى الوزارة خالد بن برمك . ثم استمر بعده ابنه يحيى ، وحفيده : الفضل ، وجعفر ، يتولونها حتى نكبهم هارون الرشيد سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافقت سنة ثلاث وثمانمائة للميلاد ، بعد أن استبدوا بكل سلطة في الدولة ، وبعد أن طغت أسباب الحياة الفارسية على بغداد ، فانصرف الناس بعد نكسة البرامكة عن أوجه الحضارة الفارسية ، وعادوا إلى التقاطع بالليل إلى الدواية ، وإلى العصبية العربية .

مهم من فعل ذلك خوفاً من أن يقيم بمثل ما أقيم به البرامكة ، فيصير أمره إلى ما صار أمرهم إليه . ومنهم من فعل ذلك مصانعة لأرباب الدولة ، حيث إن الناس على دين ملوكهم .

وكثر العمران في أيام هارون الرشيد . واستبحرت الحضارة ، وغم الترف وازدهرت العلوم والآداب . وعظمت هيبة الدولة ، وبعد عصر هارون الرشيد ذروة القوة السياسية للعرب . وأزهى ما بلغت إليه عصورهم في العمران والحضارة ، والأدب والعلوم .

وخلف هارون الرشيد ثلاثة من بنيهِ : الأمين ، والمأمون ، والمعتصم . وكان الرشيد قد قسم الإمبراطورية سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافقت سنة واحد وتسعين وسبع مائة للميلاد بين الأمين والمأمون ، فأوصى للأمين بالملك على غرب الإمبراطورية : بغداد وما يقع غربها ، حيث يسود العنصر العربي ، ويكثر أنصار

"الأمين"، وأوصى "للمأمون" بالملك على شرقي الإمبراطورية "ما يقع شرق بغداد"، حيث يكثر العنصر الفارسي وأنصار "المأمون".

ويبدو أن القسمة على هذا النحو كانت راجعة إلى أن "أمّ الأمين" كانت عربية، بينما أمّ "المأمون" كانت فارسية.

وسرعان ما نشب النزاع بين الأخوين، وانتهى الأمر أخيراً بمقتل "الأمين" سنة تسع وتسعين ومائة للهجرة، والتي توافق سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد ٨١٣ م، وإعادة وحدة "الإمبراطورية" تحت سلطة "المأمون".

يُبد أن "المأمون" انقلب بعد مقتل أخيه على السياسة الفارسية العلوية، وترك عاصمته "مرّو" في "خراسان"، ثم عاد إلى "بغداد" سنة أربع ومائتين للهجرة النبوية الكريمة ٢٠٤ هـ، يُبد أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف، فلمّا جاء "المعتصم" سنة ٢١٨ للهجرة، والتي توافق سنة ٨٢٣ للميلاد فتح أبواب الجيش "للأتراك"، وذلك لمقاومة النفوذ الفارسي، ولكن لما كثّر الجند من الأتراك في "بغداد" كثّر شغبهم فيها. فنى لهم "المعتصم" مدينة "سامراء" على أربعين كيلو متراً شمالي "بغداد"؛ لتكون لهم معسكراً.

ويُحسن بنا أن نذكر أنّ "أمّ المعتصم" كانت تركية، من أجل ذلك أصبحت "سامراء" في حقبة من حقب الزمن عاصمة للخلافة العباسية. وقد حدث في خلافة "المعتصم" حدثان مهمّان، وهما:

أولاً: القضاء على فتنة "بابك الحارمي"، وقطع دابر الفتنة السياسية الدينية.

ثانياً: فتح "غُمُورِيَّة"؛ وكان ذلك ردّاً على اعتداء "ملك الروم" على "زَبَطُرَة"، وانتهاكه حرمة المسلمين بها، حتى صرخت إحدى المسلمات، وقالت: "وامعتصماه"، فحَبَّش "المعتصم" الجيش الإسلامي. وفتح "غُمُورِيَّة"، وهي إحدى المدن الرومية وتقع في "آسية الصغرى"، وبذلك كان خضد شوكة "الروم". فدمرها وأحرقها وكان ذلك ردّاً حاسماً وصارماً وقاسياً على اعتداء ملك الروم على "زَبَطُرَة" وانتهاكه

لحركات المسلمين فيها ، وفي ذلك يقول الشاعر "أبو قحافة حبيب بن أوس الطائي ،
 يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفاً معسولة الحلب (١)
 أنقبت جد بني الإسلام في صنع والمشركون ودار الشرك في صعب
 وخلف المعتصم اثنان من أولاده ، وهما : "الوائق" سنة "٢٧٧هـ" - "٨٤٢م"
 و"الموكل" سنة "٢٣٢هـ" - "٨٤٧م" ، ولم يحدث في أيامهما إلا اتساع نفوذ الأتراك
 في الجيش ، حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ، فيقتلون من شاءوا ، ويؤبسون من
 شاءوا

وقد بدأ استعلاؤهم بقتل "الموكل" نفسه سنة "٢٤٧هـ" ، والتي توافقت سنة "٨٦١م"
 ثم لم يبق للخلافة زهو بعد ذلك ، ولم يبق للخلفاء سلطان (٢).

الأنوار الاجتماعية في العصر العباسي :

إن نسبة العربية لم تغلب فجأة ، بل بدأ التبدل فيها منذ حروب حيوش الفتح إلى
 نصر عاصم في الشرق والعرب ، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب ، ومنذ شرع
 سواد ينحسرون عن سكنى البادية ، وينزلون الحواضر ، ومنذ شغف العاصيون العرب
 سبيهم بالحضارة الآرية ، وتزوجوا العارسيات والشركيات والبروميات
 إلا أن هذا التبدل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسية مبلغاً نفست الأنوار
 غطت عن حقائق الشعر البدوي الأولى

وقد نتج من ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم ، واقتناسهم أموراً كثيرة من
 ألبسة الحضارة المادية ، ومن أساليب التفكير ، ثم إن الموالي (المسلمين من غير العرب)
 لم يزلوا يحتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ، ومن عاداتهم في الخيال خاصة ، وأخذوا

١ - النور

٢ - تاريخ الأدب العربي ٣٦/٢ بتصرف

٣ - رسائل من رحيق الأدب العباسي ، لشبحة واستاذنا المرحوم الدكتور / عبد السلام
 بو الحارث ص ١٣٨

٤ - تاريخ الأدب العربي : للدكتور / عمر فروخ ٣٣/٢ وما بعده بتصرف

"الأمين"، وأوصى "المأمون" بالملك على شرقى الإمبراطورية "ما يقع شرق بغداد"، حيث
يكثُر العنصر الفارسي وأنصار "المأمون".

ويبدو أن القسمة على هذا النحو كانت راجعة إلى أنَّ "أمّ الأمين" كانت عربية، بينما
أمّ "المأمون" كانت فارسية.

وسرعان ما نشب النزاع بين الأخوين، وانتهى الأمر أخيراً بمقتل "الأمين" سنة تسع
وتسعين ومائة للهجرة، والتي توافق سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد "٨١٣" م، وإعادة
وحدة "الإمبراطورية" تحت سلطة "المأمون".

يُبد أن "المأمون" انقلب بعد مقتل أخيه على السياسة الفارسية العلوية، وترك
عاصمته "مرو" في "خراسان"، ثم عاد إلى "بغداد" سنة أربع ومائتين للهجرة النبوية الكريمة
"٢٠٤" هـ، يُبد أن التنبؤ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف، فلمّا جاء
"المعتصم" سنة "٢١٨" للهجرة، والتي توافق سنة "٨٢٣" للميلاد فتح أبواب الجيش
للأتراك، وذلك لمقاومة النفوذ الفارسي، ولكن لما كثّر الجند من الأتراك في "بغداد" كثّر
شغبهم فيها، فنى لهم "المعتصم" مدينة "سامراء" على أربعين كيلو متراً شمالى "بغداد"،
لتكون لهم معسكراً.

ويُحسّن بنا أن نذكر أن "أمّ المعتصم" كانت تركية، من أجل ذلك أصبحت "سامراء"
في حقة من حقب الزمن عاصمة للخلافة العباسية. وقد حدث في خلافة "المعتصم" حدثان
مهمّان، وهما:

أولاً: القضاء على فتنة "بابك الحريمي"، وقطع دابر الفتن السياسية الدينية.

ثانياً: فتح "عمورية"، وكان ذلك ردّاً على اعتداء "ملك الروم" على "زبطرة"، وانتهاكه لحرمه
المسلمين بها، حتى صرّخت إحدى المسلمات، وقالت: "وامعتصماه"، فجيش
"المعتصم" الجيش الإسلامي. وفتح "عمورية"، وهى إحدى المدن الرومية وتقع
في آسيا الصغرى، وبذلك كان خضد شوكة "الروم"، فدمرها وأحرقها وكان
ذلك ردّاً حاسماً وصارماً وقاسياً على اعتداء ملك الروم على "زبطرة" وانتهاكه

لحرمات المسلمين فيها ، وفي ذلك يقول الشاعر "أبو نمار حبيب بن أوس الطائي ،
 في يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفاً معسولة الحلب (١)
 أنقبت جد بني الإسلام في صنع والمشركين ودار الشرك في صبيب
 وخلف "المعتصم" اثنان من أولاده ، وهما : "الواثق" سنة ٢٧٧هـ - "٨٤٢"م
 و"المستنصر" سنة ٢٣٢هـ - "٨٤٧"م ، ولم يحدث في أيامهما إلا اتساع نفوذ الأتراك
 في الحيش ، حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ، فيقتلون من شاءوا ، ويؤثرون من
 شاءوا

وقد بدأ استعلاؤهم بقتل "المستنصر" نفسه سنة ٢٤٧هـ ، والتي توافقت سنة ٨٦١م
 ثم لم يبق للخلافة زخوة بعد ذلك ، ولم يبق للخلفاء سلطان (٢).

الأنوار الاجتماعية في العصر العباسي :

إن الحياة العربية لم تنقلب فجأة ، بل بدأ التبدل فيها منذ حركات جيوش الفتح إلى
 عصر ندم في الشرق والعرب ، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب ، ومنذ شج
 - وينحسرون عن سكنى البادية ، ويتركزون الحواضر . ومنذ شعفت الفاتحون العرب
 مسيرون بالحمل الأثري ، فتزوحوا العارسيات والشركيات والبرميات
 لأن هذا التبدل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسية صلماً لفت الأنف
 رغننى على حصائص الشعر البدوي الأولى

وقد نتج من ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم . واقتناسهم أموراً كثيرة من
 أروحه الحضارة المادية ، ومن أساليب التفكير ، ثم إن الموالي (المسلمين من غير العرب)
 لاثنين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ، ومن عاداتهم في الحدال خاصة ، وأحدوا

١ - النوير

٢ - تاريخ الألب العربي ٣٦/٢ تصريف

٣ - رشفت من حريق الألب العباسي : لشيد واستدنا المرحوم الدكتور / عبد السلام
 بو احد سرحان ص ١٣٨

٤ - تاريخ الألب العربي : للدكتور / عمر فروخ ٣٣/٢ وما بعدها تصريف

يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد ، بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة - كالتفريق بين ذات الله وصفاته . والبحث في شأن الجنة والنار وفي أعمال الإنسان ، وهل هو مخير يأتي أعماله حراً مختاراً ، أم مسير مجبر على أعماله .

وهكذا نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال ، ثم اتسعت في العصر العباسي اتساعاً كبيراً ، والاعتزال : حركة فكرية تقوم على أن العقل وحده حَكَم في جميع الأمور ، حتى في العقائد ، ولم يضيق صدر الإسلام بهذه الحركة ؛ لأنها حركة أصيلة فيه ولكن أهل الدولة حملوا الأمر على ظاهره ، فكانوا إذا ضاقوا درعاً مخضماً سياسياً ثم وحدوا عندئذ شيئاً من حرية الفكر ، قالوا عنه : إنه زنديق . وأخذوه في الظاهر بهذه التهمة ، بينما هم كانوا في باطنهم ينقمون منه خصومته السياسية .

وكان أبعد الأسباب أثراً في تدل المجتمع الإسلامي : الزواج بغير العربيات ، فقد تبدلت به الحياة البيئية في المطعم والملبس ، وآداب السلوك ، وفي تنوء جيل له غمومة عربية وخؤولة فارسية أو رومية أو تركية .

وبينما كان العرب الأولون خلصاً ، لا يرون للأمم على العرب فضلاً في شئ أصبح الجيل المولود الجديد يتعصب أيضاً لخزولته ، ويرى أن العرب ليسوا أفضل من سواهم في كل شئ ، هذه التسوية بين غير العرب وبين العرب هي التي سمّاها أهل الحمية العربية "الشعوبية" .

وكان في البيئة العباسية طبقة أثرت في حياة المحدثين تأثيراً عميقاً ، تلك هي طبقة الجوّاري ، والجارية في الأصل : هي الفتاة ، أو الفتية من النساء ، ولكنها أصبحت تطلق على الإماء - أي الجوّاري المملوكات - على أن الجوّاري في العصر العباسي لم يكن يتمتع في خدمة البيوت ، أو أننا نحن لا نعني هؤلاء منهن ، بل كان هنالك أستاذون وأستاذات يعلمون الجوّاري أصناف العلوم ، كالفقه ، والكلام ، وأنواع الفنون كالغناء والرقص والشعر حتى إنهن كنّ يتخذن للمباهاة والمناظرة . وقد بلغ ثمن الجارية مثل هذه مئات ألوف الدراهم أو الدنانير .

وكثر التقرب "التشبه بالعرب" بين الموالى ، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم كانوا يلقبون لأنفسهم أنساباً عربية ، فأبو تمام الرومي أصبح "حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن عدى بن عمرو بن الحارث بن طئ بن أد بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان" .

وهكذا أصبح المسلمون من الترك والفرس والروم يشعرون شعوراً قومياً عربياً فاللغة العربية أصبحت لغتهم ، والتاريخ العربي تاريخهم ، والحياة العربية حياتهم ، حتى إن الذين لم يدخلوا في الإسلام بل ظلوا في أهل الكتاب ، من النصارى واليهود والصابئة ، كانوا لا يختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلمين في شئ ، وربما تسموا بالأسماء الإسلامية يتكسوا بالكى العربية.

إن شكل الدولة والحكومة الذي كان للعرب قبل الإسلام لم يصلح للإمبراطورية الجديدة وللمجتمع الجديد . وكان للبلاد المفتوحة حكومات ، فلم يستكف العرب أن يستفيدوا من احتياض من نزل في تلك البلاد فلبسهم من الدول ، فاستعانوا بالأنظمة القديمة ورحل الدول القديمة . وما أن الفرس هم الذين ساعدوا العباسيين على بيل الخلافة له يكن مستعرباً أن يلقي العباسيون قياد دولتهم إلى الفرس جملة . حتى أصبحت الدولة عباسية فارسية في كل شئ ، وحتى أصبح الفرس والحراسانيون خاصة يدعون "أبناء الدولة" . فأثار ذلك نقمة العرب - والتبعية منهم خاصة - على العباسيين^١.

خصائص الأدب العباسي :

إن الأدب العباسي الذي ساد في صدر الدولة العباسية يسمى "الأدب العباسي" نسبة إلى الدولة التي قبل في أيامها ، ويسمى "الأدب المولدي" ؛ لأن معظم الأدباء في ذلك العصر كانوا مولدين (مولد بين أبيون أحدهما عربي والآخر غير عربي) ، أو "الأدب المحدث" ؛ لأن أولئك الأدباء كانوا محدثين (جديداً أو متأخرين ، بالإضافة إلى أدباء الجاهلية وأدباء "عصر الأموي") .

١ - تاريخ الأدب العربي / عمر فروج ص ٣٨ وما بعدها .

ثم إنَّ الأدب نفسه كان بهذا المعنى مولداً ، لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأسلوبه فقد دخل في الأدب العربي فنون وأغراض ومعان لم يألفها الأدب العربي من قبل كالغزل بالمذكر ، والخمریات ، والتوفّر على الأوصاف الحضريّة ، وإعمال العصبية العربيّة البدويّة ثم دالت دولة الجمل والطلّ ، وقام على أنقاضها "دولة الرياض والحسان" ، وزالت من الشعر المطبوع بالطابع الجديد آثار التقليد للأقدمين والاحترام لهم ، وحلّ مكانها التهور من حيائهم وأغراضهم ، وبدأ الابتكار ، ثم مات التستر والكناية ، وظهر مكانهما التصريح وقلة المبالاة .

أما الأسلوب :

فدخل عليه شئ من الضعف في معرفة خصائص الألفاظ ، وفي التركيب أيضاً ولكن اكتسب رقة في التعبير ، ودخل عليه التكليف بالإكثار من الصناعة (الجناس والطباق خاصة) وتطور النثر في العصر العباسي تطوراً كبيراً ، وبدأ التأليف على ما نعرف اليوم . وحدث تطور آخر في الشعر ، إذ مال المحدثون إلى الأوزان القصيرة ، وإلى نظم المقطعات (الآيات المحدودة في أغراض محدّدة) ، كما أحبوا القوافي التي كانت إلى ذلك الحين مهجورة أو شبه مهجورة ، فبنوا بعض مقطعاتهم على ما غرب من الذال والطاء والضاد ، فلم تنفر في السمع ؛ لأنهم لم يطلبوا القصائد فيضطروا إلى الاستعانة بقواف غريبة .

الألفاظ الجديدة :

إن البيئة العباسية بما جدّ فيها من مظاهر الحضارة المادية ، ومن أوجه الثقافة الأجنبية خاصة ، وبما حدث فيها من جوانب الحياة الاجتماعية اقتضت ألفاظاً جديدة ؛ للتعبير عن تلك المظاهر والأوجه والجوانب . وقد تجلّت العبقرية اللغوية في العرب عن ثلاثة أنواع من الألفاظ :

الألفاظ المولدة :

وهي صيغ مستقاة من جذور عربية ، نحو "تلاشى" أي : اضمحل ، و"استاهل" بمعنى "استحق" ، و"الإيقاع" : أي الضرب على الدف ونحوه على نظام معين ، وكذلك لفظة "آدب" الدالة على الإنتاج الراقي من الشعر والنثر.

وربما كان التوليد في استعمال صيغة عربية قديمة لتأدية معنى جديد ، نحو : "استعرض" ، فإن معناها الجاهلي "قتل بالسيف" ، فاستعملت في العصر العباسي بمعنى "تصفح الأوجه المختلفة في شئ ما" ، كقولنا اليوم : "استعرض القائد الجيش" . ثم حدث في البيئة العباسية مظاهر ومعان لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظاً تؤدّيها من قرب أو من بعد ، فعربوا ألفاظها الأجنبية (أي هجروا اللفظ الأجنبي في صيغة عربية قدر الإمكان) ، نحو : "أنذراه" الفارسية ، فإنها أصبحت هندسة ، و"كليما" اليونانية فإنها أصبحت "إقليم" . فهاتان وأمثالهما هي الألفاظ المعربة .

وبقي عدد من الكلمات لم يمكن تعريبها أيضاً ، فظلت مدة على لفظها الاجسي نحو : "أبا ذميا" ، "اسطقسى" ، "اسطرونويا" . ثم أوجدت لها ألفاظ عربية هي : "الوباء" "العنصر" . "الهيئة" أو "الفلك" . ثم بقي ألفاظ لم يجد العرب حاجة إلى تعريبها . أو لم يأت لهم تعريبها ، نحو : "قانون" ، "جغرافية" "اسطربال" "كاغد الخ" ، وهذه كلها تسمى الألفاظ الدخيلة ؛ لأن العجمة ظلت ظاهرة عليها .

المذهب البغدادي ، والمذهب الشيعي :

انقسم الشعراء منذ الجاهلية إلى فريقين ،

○ فريق أخذ شعره بالتشجيع والتثذيب ، مثل "أوس بن حجر" ، و"زهير بن أبي سلمى" و"الباقية الديباني" .

○ وفريق حرى في نظم الشعر على السليقة . مثل "طرفة بن العبد" ، و"عترة" و"الخنساء" .

وكانت قيمة شعر الفريق الثاني بالمعاني التي فيه ، أما تراكيهم فكانت تتعقد أحياناً حتى تكاد تستفلق ، كما نرى في شعر "طرفة" ، أو تضعف حتى تُرك ، كما نرى في شعر "عنتره" .

أما الفريق الأول فكانت قيمة شعرهم في العناية بالتعبير عن المعاني ، وفي تطلب التشابه والاستعارات ، وإخراجها مخرج الصور الشعرية .

وعاش المذهبان إلى العصر الأموي ، "فالأخطل" كان من الذين يأخذون شعرهم بالتنقيح ، بينما "عمر بن أبي ربيعة" كان يجري في شعره على السليقة ، فلما جاء العصر العباسي كان الميل فيه إلى نظم الشعر سليقة وطبعاً ، كما نرى عند "بشار بن برد" ، و"أبي نواس" ، و"أبي الرومي" .

وبما أن معظم الشعراء الذين كانوا يفضلون المعنى على اللفظ كانوا يعيشون في "بغداد" ، فقد عُرفت طريقتهم باسم "المذهب البغدادي" ، ثم كان هنالك شعراء مالوا إلى "التأني" في اللفظ ، وبما أن معظم هؤلاء كانوا ممن نشأوا في الشام ، ثم اتفق أن انتقلوا إلى بغداد ، مثل "أبي تمام" وتلميذه "البحتري" ، أو كانوا من الذين أثروا "الشام" في السكنى مثل "ديك الحى الحمصي" أستاذ "أبي تمام" ، ومثل "المتنبي" ، و"أبي فراس" ، و"المعري" - فقد سميت طريقتهم في الشعر "المذهب الشامي" .

ويحسن أن نشير هنا إلى أن نقرأ من شعراء "بغداد" "كمسلم بن الوليد" ، و"الشريف الرضي" كانوا من أتباع "المذهب الشامي" ، ثم إننا كثيراً ما نجد لأتباع المذهب الشامي مقاطع وقصائد تجرى على المذهب البغدادي ، كما نرى للبغداديين أحياناً يتأفقون فيها ويغالون^(١) .

خصائص الشعر الشامي :

قليلاً ما يبذل الشاعر الشامي إلى "الهزل" أو "المرج" في شعره ، فمن أبرز خصائص الشعر الشامي ما يلي :

١ - تاريخ الأدب العربي : الدكتور / عمر فروخ ص ٤٢ .

أما النثر :

فقد كان أكثر تطوراً واتساعاً في العصر العباسي من الشعر ، حيث نشأت التوقيعات وهي جمل قصار مقبسة ، أو منشأة كان الخلفاء خاصة يوقعون بها ، ومن هنا جاء اسمها في آخر القصص ، وهي الرقاع والأوراق التي تعرض عليهم ، وفيها اقتراح بعمل أو طلب من محتاج ، أو حكم من قضاء ، أو مبلغ من المال للصرف والإنفاق ، ومع أن التوقيعات كانت معروفة منذ عصر الخلفاء الراشدين ، لكنها قد اتسعت في العصر العباسي اتساعاً جعلها من حصائص هذا العصر

فمن التوقيعات العباسية ما يلي :

شكا أهل الكوفة إلى "أبي جعفر المصور" سوء معاملة "عاملهم" ، والعامل وقتذاك : هو الحاكم الذي يحكمهم ، وقد كلف بجمع الضرائب منهم ، فوقع "أبو جعفر المصور" في أسفل رقعتهم التي كتبوا عليها شكواهم ، والتي رفعوها إليه في هذا الموضوع :
"كما تكونوا يؤمّر عليكم" ، ورد "أبو جعفر المصور" شكواهم وطلبهم ، ولم يغير 'العامل' - يعني أميرهم وحاكمهم

وأتسعت الكتابة الديوانية : وهي تبادل الرسائل بين الخلفاء والولاة ، وكثرت أيضاً الرسائل الإحوائية . والتي يتبادلها الأصدقاء والخلائم فيما بينهم ، وبذلك قلّ واضمحلت شأن الخطابة.

التدوين والتأليف :

إن المظهر الأدبي الذي يبرز في العصر العباسي بُرُوزاً عظيماً هو "التدوين" ، فقد كان الأدب القديم يقوم على الرواية فحسب ، يتناوله الرواة باللسان ، أما في العصر العباسي فقد غلب 'التدوين' يعنى الكتابة وتدوين ما يُسمع للاحتفاظ به إلى وقت الحاجة ، يقول الشاعر :

العلم صَيِّدٌ والكتابة قَيْدُهُ قَيْدٌ صَيِّدُكَ بالقَبُودِ الموثقة

وقد تناول التدوين جوانب كثيرة ، منها ،

أولاً : إثبات الروايات كما سمعت ، وخاصة فيما يتعلق بالحديث والتاريخ .
 ثانياً : إثبات معاني الروايات ، وذلك بعد إيجاز ما طال منها ، أو ما تكرر فيها
 وخصوصاً فيما يتعلق بتاريخ الأدب ، وبالأحوال الاجتماعية عند تعدد الروايات .
 ثالثاً : تنسيق الروايات . وهو "جمع المتشابه منها بقدر الإمكان في محل واحد ورواية
 واحد" مثلما نجد ذلك في كتاب "الكامل" للمبرّد ، على أن هذا التنسيق لم يكن
 جامعاً ، فقد ينسى المدوّن أمراً فيعود إلى ذكره في مكان تال للمكان الأول .
 رابعاً : التأليف . وهو أن يصع المدوّن نظاماً معيناً لمادته الأدبية ، أو العلمية كما نشاهده
 في كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفّع ، وكتاب "الحيوان" للجاحظ .
 خامساً : النقل : وقد اتسع النقل في العصر العباسي ، ودون المنقول من الحكم والآداب
 والسلوك ، وفنون العلم والفلسفة عن اللغة الفارسية والسريانية واليونانية والهندية
 وربما كان الذي دون الروايات يُمدى رأياً بعد رآى في صحة الرواية أو في قيمتها
 أو يفسر ما يدون من بعض الشعر أو الشر . وذلك طلبية النقد . ثم إن هؤلاء جعلوا
 في كتبهم مقاطع خاصة "بالنقد اللغوي" أو "اللاعي" أو "الأدبي" ثم سنأت فيما بعد
 كتب النقد .

المذاهب النحوية والأدبية:

إن جميع محوثر العرب في اللغة يعنى في "الأنطاط والتراكيب" ، وفي صيغ الكلمات
 المتشابهة وفي الإعراب ، وفيما ورد عن العرب ، وما لم يرد ، وفيما ورد عن قبيلة دون قبيلة
 إنما قصد بها ضبط لغة القرآن حتى يطلّ القرآن يُقرأ كما أنزل على رسول الله . سيدنا محمد
 ﷺ فقرأ الرسول - عليه السلام - على المسلمين الأول

ومن الواجب أن نعلم أن جميع أشعار العرب الجاهليين ، وأخبارهم . وأمثالهم إنما
 قصد به أيضاً ما قصد من جميع لغاتهم في ألفاظهم وإعرابها ، ولا بد من فهم ما يسميه
 مؤرخو التاريخ والأدب : الخلاف بين علماء العسرة وعلماء الكوفة في ذلك كله

من اعتبار ما يلي :

أولاً : إن اللغة تتطور بالإضافة إلى الأمكنة والأزمنة ، حتى تظل مواقفة لحاجات المتكلمين بها ، وقد اختلفت اللغة العربية بحسب ذلك بين القبائل الشمالية نفسها قليلاً كما اختلفت لغة العرب الجنوبيين لغة القبائل اليمنية كثيراً ، حتى أصبح أهل اليمن قبل الإسلام يتكلمون لغة مخالفة للغة "مُضَر" وهم "عرب الشمال".

ثانياً : لما نزل القرآن الكريم نزل بلغة "قريش" ، ولغة "قريش" يومذاك أفصح قبائل العرب لدى علماء اللغة ، قد ظل ما يبعد عن لغة قريش في لفظه وصيغته وإعرابه غريباً نادراً في اللغة العربية .

وجدير بالذكر أن نقول : إن علماء اللغة حين جمعوا ألفاظها لم يقوموا بجمع ألفاظ "مُضَر" فحسب . بل جمعوا كل ما سمعوه من "البدو" ، حيث إن "البدو" كانوا في رأى أرباب العلماء يتكلمون سائقة ولا يخطئون .

من هذا الفرض انطلق العلماء بصنفون الألفاظ : فصيحة . وغريبة . وخوشبة ودحيلة .

ثالثاً : إن الذي نسميه "اختلاف الرواة" ليس في الواقع سوى تمسك كل فريق بما سمع في البيئة المحيطة به . ويبدو أن الفرق بين رأى علماء النصرة ، ورأى علماء الكوفة في طرق اشتقاق الألفاظ ، وفي الدفاع عن بعض أو جل الإعراب ، وفي إقامة الأدلة على رأى دون رأى إنما هو من عمل العلماء المتأخرين ، وقد بدأ مع "المبرد" وتعلب في الأغلب الأعم .

العوامل المؤثرة في الأدب العباسي :

أولاً : الحياة السياسية :

لم يكن ظهور الدولة العباسية على مسرح السياسة العربية أمراً مفاجئاً للأمة العربية خاصة ، والعالم أجمع بصفة عامة ، فقد كانت هناك مقدمات واستعدادات أخذت تتلور

في نفوس حكام "بني العباس" منذ أن ولي "أبو بكر الصديق" أمر الخلافة .
وزادت رغبة تولي الأمر بعد نهاية عهد "أبي بكر" ، وقيام "عمر بن الخطاب" بالأمر
ثم "عثمان بن عفان" ، فالقوم يجمعون على أن أحق الناس بالخلافة هم "بنو العباس" الذين
ينتمون إلى عليه السلام بصلة الرحم القريبة ، حتى عن "علي بن أبي طالب" وأبنائه .
فلم تكن نفوس آل العباس "مهيأة" أو مستريحة لقبول أمر الخلافة للخلفاء الراشدين
جميعاً ، كذلك ملأها الحقد والبغض والتفور مع الباغضين والتافرين من "بني أمية"
وولائهم ، وكانوا دائماً يتحينون الفرصة المواتية لاسترجاع الأمر المسلوب في اعتقادهم
وإعادة الأمور إلى نصابها المستقيم.

وبدأ "بنو العباس" على رأس القرن الأول الهجري يدبرون في دعوى سرية للقضاء
على "بني أمية" ، ويرسلون دعائهم في الآفاق . خاصة في "خراسان" و"الكوفة" ، وظلوا
يتأوون الدعوة فيها بينهم ، حتى تمكنوا من القضاء على الدولة الأموية ، وكان ذلك على
يد "أبي العباس السفاح" الذي رأى أن يتخذ الهاشمية بقرب الكوفة مكاناً مختاراً له وحاضرة
الدولة العباسية.

وكان همُّ العباسيين القضاء التام على كل من يناصبهم العداء من الأمويين ، وكذلك
التخلص من عنصر العلويين ، أتباع سيدنا "علي بن أبي طالب" وأبنائه ، وكل من تشيع
لهم .

وإذا كان الأمويون قد خذعوا "علي بن أبي طالب" ، وسلبوه الخلافة وأبناءه ، فإن
العباسيين لعبوا نفس الدور ، وخذعوا أتباع العلويين ، ونظاهروا أنهم ليسوا طلاب خلافة
فتنسوا أنفسهم للدفاع عن قضية نصرته الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل
والظلم (١).

ومن هنا فقد تعددت الآراء في الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية

١ - آراء الشعر العربي - مذاهبه وفنونه ص ١٥٦ وما بعدها ؛ د/ عبد الرحيم محمود زلط.

ثم سقوطها في سنة ١٣٢ هـ : فمن المؤرخين من أرجع ذلك إلى انشغال خلفاء بني أمية بالملدات والشهوات عن تفقد أحوال الرعية وأمور الدولة ، وظلمهم الرعية ، حتى يشن الناس من إنصافهم ، فتمتوا الراحة منهم .

وأرجع الدكتور / حسن إبراهيم أسباب انهيار الدولة الأموية إلى تحلل الأسرة المروانية من داخلها ، ووقوع النزاع على السلطة بين أفرادها .

كما عرّاهم بعضهم الأسباب إلى الصراع القلبي ، واضطراب النظام المالي للدولة وطمع الضعفة بشكل حاد بين العرب والموالي .

وكل هذه الأسباب أو بعضها يصلح تفسيراً لانهيار دولة بني أمية ، بالإضافة إلى المعصر السابق للأمويين ، والذي كان يمثل شوكة في حلق الأمويين ، وأعشى به الشيعة الذين كانوا يرون أحقيتهم في ولاية أمر الناس ، ذلك أن استشهاد الحسين في كربلاء وتبرل أخيه الحسن عن حقه في الخلافة ، ومبايعة علي زين العابدين لـ "يبريد بن معاوية" ثم لـ "عبد الملك بن مروان" ، ثم مبايعة محمد بن علي لـ "عبد الملك" نفسه - كل ذلك لم يكن مع مطلقاً أن الشيعة في هؤلاء الذين تنازلوا عن حقهم إلا أنهم مغلوبون على أمرهم . ربح مات محمد بن علي علا به بعضهم فأكر موتهم ، وقال إنه تغيب وسيرجع وأشار إلى ذلك شاعرهم السيد الحميري فقال :

ولاة الحق أربعة سواء	الا إن الأنفة من قریش
هم الأسباط ليس بها خفاء	على والأنفة من بنیه
وسبط غيبت به كربلاء	فسبط سبط إيمان ونسر
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسط ذابوق الموت حتى

وقد طلت فكرة الإمام المستتر ، وعودته ذات يوم (يقود الخيل) لكي يحل العداوة ويعيد الحق إلى بطنه . تمثل أكثر من رمز يلتف حوله لا العلويون وحدهم . بل كل من يتبع غلبه الغن ويشدون خلاص .

ومن ثم يمكننا بلغة العصر أن نقول :

إن الشيعة قد مثلت في حياة الدولتين : الأموية ، والعباسية - دور المعارضة السياسية^(١).

ولكن ما علاقة الشيعة بالعباسيين ؟ وكيف قامت الدولة العباسية ؟

ينتسب العباسيون إلى "العباس بن عبد المطلب" عم النبي ﷺ ولقد توفي "العباس" في أواخر خلافة "عثمان بن عفان" ، وكان أبرز أبنائه "عبد الله" ، وقد انصرف "عبد الله" إلى التفقه في الدين ، حتى صار حجة في التفسير والسنة ، ولم تكن له مطامع سياسية ، أما ابنه "علي" فيبدو أن فكرة الخلافة راودته ، وإن كما لا نعرف له حركة في سبيل تحقيقها^(٢) وإنما بدأت الثورة على يد ابنه "محمد" ، فحينما آل الحكم إلى "معاوية بن أبي سفيان" بقي نفر من آل "علي بن أبي طالب" عليه السلام وشيعته متمسكين بحقهم في الخلافة وساعين إليها سعيًا ظاهرًا أو خفيًا ، وكان على رأس هؤلاء النفر "أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب" ، وحينما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى بالإمامة من بعده لـ "محمد بن علي بن عبد الله بن العباس" ، شريطة أن ينقل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبهذه الوصية وجد "محمد بن علي" ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة وكان حصيف الرأي ، بعيد النظر ، فعمد إلى تطعيم الدعوة العباسية سرًا ، متخذًا من الكوفة - دار التشيع ومستقره - مهدًا لها ومركزًا ، ولكنه أسر في نفسه أمرًا ، وهو أن ينقل الخلافة إلى "بني العباس" ، لا إلى "بني علي" . وقد استطاع في النهاية أن يحقق هدفه ويوصل إلى غايته^(٣) بما أوتي من معرفة وذكاء وخبرة في السياسة ودهاء فلقد فكر أولاً في أنسب الأماكن لنشر دعوته . فقال لدعاته حين أراد توجيههم إلى

١ - في أشهر العباسي - النوبة والفن ص ١٦ : د/ عر الشير اسمعيل .

٢ - المرجع السابق ص ١٨ .

٣ - دارسات في الألف العباسي ص ٥ .

الأمصار : " أما الكوفة وسوادها فشيعةٌ على وولده . وأما البصرة وسوادها فعثمانيةٌ تدين بالكف . وأما الجزيرة فحروريةٌ مارقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، أما مكة والمدينة فقد غلب عليهما "أبو بكر وعمر" ، ولكن عليكم "خراسان" فإن هناك العدد الكثير ، وهناك صدور وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء .. وبعد فإبى أنشاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدين ومصباح الخلق".

وواضح أن هذا الرجل أحسن اختيار المكان الذي تنبعث منه الدعوة ، فهو مكان بعيد عن قلب الجزيرة العربية موطن الدعوة الأموية . لأنه أدرك بفضته أن دعوته لم تجد طريقها في البلاد التي يسيطر عليها الأمويون ، كما أدرك مدى استجابة الفرس لهذه الدعوة الجديدة : لحبهم الشديد لآل البيت ، وبغضهم للبيت الأموي ، الذي أبعدهم عن المناصب العليا في الدولة .

ومن هنا نقول : لم يكتف باختيار أنسب البيئات في وقته لتقبل الدعوة فحسب بل أنسب الجماهير التي يمكن أن يعول عليها عندما تخرج الدعوة من السرية إلى العلن ويكون عليها حقاً أن تصطدم بقوات الأمويين المخاربة".

ومن الأمور التي ساعدت على تحقيق ما هدف إليه العباسيون أيضاً : اختبار الوقت المناسب . فقد أرجأ العباسيون الدعوة الجهرية إلى عام ١٢٦هـ حين ضعفت الدولة الأموية في حين سلكت الدعوة السرية طريقها في "خراسان" وما جاورها سنة ١٠٣هـ . ١٠٤هـ وهذا إن دل فإنما يدل على أن محمد بن على "كان حاد الذكاء ، بعيد النظر . إذ رأى أن القيام بأى ثورة آنذاك سيعرضهم لبطش الأمويين . بل إن مجرد الإعلان عن أنفسهم ودعوتهم سيجر عليهم المتاعب ، وسيفسد الأمر عليهم . ومن ثم فقد أثار أن تظل الحركة سرية . مستفيداً في هذا من التنظيم السري الذي كان لـ "أبى هاشم" .

١ - في الشعر العربي - الروية والفن ص ٢١ .

كما احتار العباسيون لدعوتهم رجالاً أكفاء ، دوى لسان وحنان بهصوا مدعوتهم على أكمل وجه ، وقاموا بها حير قيام ، ومن أشهر هؤلاء الدعاة " أبو سلمة الخلال " الذي كان يلقب بـ " وزير آل محمد " ، و" أبو مسلم الخراساني " الذي كان على رأس هؤلاء الدعاة ذلك الذي كان داهية أريباً ، وداعية بصيراً ، يحسن سياسة الأمور ، ويعرف ما سيكون بما هو كائن^(١).

وقد استطاع هذا الرجل بذكائه ودهائه أن يوقع الهزيمة "بني مروان" ، ولما قيل له : بأي شيء أدركت هذا الأمر ؟ قال : " ارتدبت بالكتمان ، وأثرت بالحزم ، وحالفت الصبر وساعدت المقادير ، فأدركني طلبي ، وحزت بنيتي " . وأنشد في ذلك :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وبهذه الأسباب الثلاثة : تخير المكان المناسب ، وتخير الوقت المناسب لإظهار الدعوة ثم اختيار الدعاة الأكفاء والرجال القادرين ، مصافاً إلى هذه الأسباب حسن التخطيط وبراعة التنفيذ - سقطت دولة بني أمية^(٢) ، وقامت دولة " بني العباس " .

ولئن سقطت دولة بني أمية وسكت صوتهم سيف العباسيين ، فإلى طل الشيعة العلويون ينادون حكم العباسيين ، ويرون أنهم قد اعتصموا حقاً هم به حديرون ، فضلاً عن أن لهم الفضل في نجاح الثورة ، واستمر الصراع بين العباسيين والعلويين مدة طويلة من الزمن .

١ - دراسات في الأدب العباسي ص ٧ .
٢ - راجع دراسات في الأدب العباسي ص ٧ ، ٨ ، بقلا عن د / كمال لاشين في كتابه من تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا حركات الشيعة العلويين وثوراتهم ضد العباسيين في كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية ، وكل صقع من أصقاعها ، وإنما الذي نريد أن نؤكد عليه هو أن الشيعة ظلوا طوال الحكم العباسي يمثلون المعارضة النشطة الخطرة على خلفاء "بني العباس" ، وهي معارضة لم تكن تركز على قوة السلاح بقدر ما كانت تعتمد على أيديولوجيتها الخاصة في شرعية الحكم وفي نظام الإمامة (الوراثة) ، وفي صفات الإمام .

.. واستمر الجدل بين الحزبين : الشيعة ، والعباسي - وقد انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الفقهي ، فكان الصراع بين فقهاء السنة ، وفقهاء الشيعة . كما انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الأدبي ، فظهر الشعر السياسي المعبر عن وجهة نظر العباسيين ، ووجهة معارضتهم من الشيعة .

ويستغل هذا الشعر قدراً غير يسير من أدب ذلك العصر . كان له فعله وتأثيره وخطره لدى الفريقين المتعارضين ، ولدى جماهير الناس . حيث كان الشعر ما يزال في هذا العصر كما كان في العصر الأموي - يقوم بدور الصحافة الحزبية السياسية^(١) .
وحنسنا أن نتوقف عند هذه الحرب الشعرية التي دارت بين الشيعة والعباسيين . فهذا "مروان بن أبي حفصة" - شاعر العباسيين المقرب الذي نظم شعره في مدح العباسيين ، نجد في بعض الأحيان يمجج مدحه لهم بتأكيد شرعية خلافتهم ، وأحقيتهم بها دون الشيعة العلويين .

من ذلك قوله في مدح الخليفة "المهدي" ،

يا بني الذي ورث النبي محمدا	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام

١ - في الشعر العباسي - الروبة والفن ص ٩٠ : ٥٠ بتصرف

ارضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثته كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثته الأعمام^(١)

فهو يشير إلى أن حقهم في وراثته النبي ﷺ تؤكد آيات الميراث في القرآن الكريم
فتحسم كل خلاف .. ويقال : إنه كان أشد ما أزعج العلويين في هذا الشعرية الذي يقول
فيه : أنى يكون - فقد أثار حفيظتهم فردوا عليه شعراً كذلك ، ويقال : إنهم تعقبوا
"مروان" نفسه واغتالوه ، وجاء في ردهم على لسان شاعرهم "جعفر بن عفران الطائي" :
لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثته الأعمام
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهم^(٢)

وبعد مقتل "محمد النفس الزكية" وأخوه "إبراهيم" بأيدي "بني العباس" ، ونشأت
العلويين في شتى الأقطار الإسلامية قال "دعبل" قصيدة رائعة فيما حل "بني على" من
النكبات ، وما أصابهم من تشتت وتشريد واضطهاد ، ومنك في العيش استهلها بقوله :

بكيك لرسم الدار من عرفات وأذريت دمع العين بالعبرات
مدارسي آيات خلعت من ثالوة ومنزل وحى مقفر العرصات
ديار عفاها كل حون مبادر ولم تعف للأيام والسنوات

ثم تحدث في مقطع منها عن حقهم المشروع في الخلافة بوصفهم ورثة النبي ﷺ وأن
أعداءهم ليسوا سوى حاسدين لهم على هذا الشرف ، مما تواتر من حبر الوصية "لعلى"
وحاقدين عليهم :

ققا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدا بالصوم والصلوات
وأين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين في الأفاق مقرفات

١ - شعر مروان بن أبي حفصة ص ٦٦

٢ - في الشعر العباسي - الروية والفن ص ٥٠ ، ٥١

هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا^(١) وهم خير سادات وخير حماة^(٢)
وقد استطاع الخزب العباسي أن يستقطب بعض الشعراء الذين لم تكن ميولهم
الحقيقية عباسية ، بل ربما كانوا أكثر تعاطفاً مع العلويين . وذلك إما عن طريق الترغيب
أو عن طريق الترهيب .

وبالطبع وُجد في هذا الجو شعراء التملق والتفاق ، فهذا شاعر متلون استطاع بطريقة
عجيبة أن يجمع بين ميوله العلوية ومدح العباسيين ، وهو "إسماعيل بن محمد" المعروف
بـ "السيد الحميري" . فقد أكثر من مدح العلويين وندب قتلاهم ، والتعني بفضائلهم
وكان تشييعهم واضحاً ، ولكنه - فيما يبدو - استخدم مبدأ "التقية" الذي كانت الشيعة
تقول به في أن يوجه بعض شعره إلى مدح العباسيين والتحدث بأفكارهم .

وهذا "التقية" : هو يدعو الأتباع من الشيعة إلى كتمان انتمائهم ، والتظاهر بالطاعة
وأن يعملوا الأعمال المُنظرة إليهم من قبل الرولاة الظاهرين على أتم وجه ، حتى لا تقوم
حريتهم الشّه إلى أن تنزع الثورة . يقول :

أمر على جذث الحسين	فقل لأعظمه الزكية
يا أعظماً لا رنت من	وظفء ساكبة روية
وإن مررت بقبيرة	فأطرب به وقف المطيرة
وخذ المطهر للمطهر	والمطهرة النقيصة
تبكاء مقولة أتت	يوماً لواحداه المنيسة

هو شغل من شعر الشيعة المنعم خير إرادة العاطفة

وما يكاد الأمر يستمر لدى العباس حتى نجد "السيد الحميري" يسرع إلى أبي العباس
المنفاج^(٣) أو حذائهم - مدحاً له ولعشيرته . ومروحاً لفكرة من أفكارهم الرئيسية . وهي

١ - السابق ص ٥٧ .

أنهم سيتبادلون الخلافة في الأرض . وأنها ستظل فيهم إلى أن يظهر "المسيح" ، فيقول :
 دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدنا الدارسا
 دونكموها لا علا كعب من كان عليكم ملكها ناقسا
 دونكموها فاقسموا تاجها لا تعلموا منكم له لابساً
 قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابساً
 ولست من أن تمسكوها إلى مهبط "عيسى" آيساً
 جدير بالملاحظة هنا أن الشاعر يوجه خطابه إلى "بي هاشم" جملة ولا يخص "بني
 العباس" بمعروف أن العلويين يقطون كذلك .

بالإضافة إلى هذا الصراع الذي كان بين العباسيين والعلويين ، والذي أرق الخلافة
 العباسية من بدايتها حتى النهاية ، وجد صراع آخر بين العرب من جهة والموالي من جهة
 أخرى .

فلقد كان الفرس أسرار العاصم الشريعة في المجتمع العباسي ، فعلى أكتافهم قامت
 الدولة ، وبسيفهم رسخت دعائمها . ومن بينهم اتخذ "بو العباس" ورياء وقواداً ، وليس
 غريباً أن يستعج هذا غلة الفرس وقوة نفوذهم^١

وبالطبع لم يستسلم العرب لقوة الموالى وبصودهم . بل قاوموا وكان بين الجانبين
 صراع عيف حيناً ، وحادئ حيناً . واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة بعضها سياسي يكيد
 فيه العرب للموالى ويكيد الموالى للعرب ، وقد كان هذا أخطر وجوه الصراع وأحماها
 في نفس الوقت ، فكانت الرعية تفاجأ بين الحين والآخر غليظة يطيح بوزير من وزرائه
 الموالى .

والذي يعيننا هنا هو أصداء هذا الصراع في الأدب . ومن أبرز هذه الآثار الشعرية ما
 براد في شعر "بشار" ، و"أبي نواس" .

١ - في الشعر العباسي ص ١٠٦ د/ محمد فتوح ص ١٩٧ .

من ذلك ما يروى : من أن المهدي سأل "بشاراً" فيمن تعتديا "بشاراً"؟ فقال : أما

اللسان والرأي فغريبان ، وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين ،

ونبتت قوماً بهم جنّة بقولهن : ذا ؟ وكنت العلم

ألا أيها السائل جاهداً ليعرفني ، أنا ابن الكرم

نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلى قريش العجم

فإذا كانت "قريش" تنتم أعلى مكانة بين القبائل العربية ، فإنه انتمى

إلى القبيلة التي تناظرهم في الرفعة لدى العجم ، ثم زاده يقول :

هل من رسول مخبر عنى جميع العرب

من كان حياً منهم ومن ثوى فى التراب

بأننى ذو حسب عال على ذي الحسب

حذى الذى أسمو به كبرى وساسان أبى

وقيصر خالى إذا عندت يوماً نمى

كم لى وعلم لى من أدب بتجاج المعصب

إلى أن يقول :

ولا حناً قط أبى خلف بعير جرب

وهكذا يبدأ بالانتساب ، فيعزو نفسه إلى ملوك الفرس من جهة أبيه ، وإلى قيسر

نزود من جهة أمه ، ولكنه يتطرق إلى دم العرب ، وتخفيف شأنهم من خلال تلك الموازنة

التي يعتقد بين سيرة آبائه ، وبين جانب من نمط الحياة لدى العرب البداءة . حيث ينير إلى

مع عنصريه بالعناء (الجداء) حلف الجمال الحربة .

وهذه الموازنة بين حياة الأعراب وطراز الحياة التي جلبها الموالي الفرس إلى مجتمع

الدولة الخديدة كثيرة في شعره . وهى موظفة دائماً عندده للحط من شأن العنصر العربي

وإبرار مظاهر تغلفه الحضاري في حياته اليومية .

ومن ذلك ما قاله في الرد على أعرابي قال ، ما للعراق والشعر ؟
أحين كسيت بعد العربي خزاً ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار
وعلى إيقاع هذه الموازنة التي تهدف أساساً إلى تحفير العرب راح أبو نواس الحسن
بن هانئ يضرب ضرباته ، فيقول :

دع الأطلال تسقيها الجذور ويكي عهد جدتها الخطوب
وخل أراكب الوجناء أرضاً تخب بها التجيبة والنجيب
بإد نبئها عشر وطلح وأكثر صيدها ضبع وذيب
فهكذا يصف أبو نواس " حياة العرب بالخشونة ، وأن المتحضرين المتعدين المترفين
لا مكان لهم فيها ، فهي حياة جذب وشقاء ، وترحال لا ينتهي على ظهور الجمال
في الغياي والنفار .

كما كان هناك صراع له أثره الكبير على الحياة الأدبية ، هو صراع العرب مع الروم
وهو صراع قديم منذ الجاهلية ، ولم تكن الصراعات بين العباسيين والروم منذ عهد الخليفة
" المنصور " ، وحتى ضعف شأن الخلافة العباسية ، وانقسمت إلى دويلات .
وتابع الشعراء هذه الحروب ، وتلك الصراعات فكانت أشعارهم وثيقة من وثائق
العصر .

وفي تأثير الفرس في الدولة العباسية يذكر الأستاذ / أحمد حسن الزيات : أن الدولة
العباسية قد اصطفت بصيغة فارسية ؛ لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها ، فاتخذت
قصدتها " بغداد " أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة
فاستقلوا بشئونهم ، واستبدوا بأمورها ، وكالوا للعرب من الحفارة والمهانة صاعاً بصاع
فضعفت العصبية العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية

والتركية والسريانية ، والرومية ، والبربرية في تكوين الدولة^(١).

هذا . وقد كان هدف العباسيين في سياساتهم لدولتهم منذ نشأتهم يتركز في النقاط التالية ،

- ١ - الإلحاح الدائب بأن الخلافة حق شرعي لبني العباس .
- ٢ - مطاردة التبعة الذين يزعمون أن لهم الحق في الخلافة .
- ٣ - الاستعانة بالعنصر الفارسي ، وبخاصة آل برمك^(٢) ، وآل الفضل .
- ٤ - القضاء على بقايا الأمويين .
- ٥ - استبقاء البيعة في النفوس بالتهديد والوعيد .
- ٦ - استخدام الدين في تبرير كل ذلك^(٣) .

ثانياً : الحياة الاجتماعية وأثر العناصر الأجنبية فيها :

الخليفة يتصفح تاريخ الدولة العباسية ، يبهره ذلك الثراء الواسع الذي كان يتمتع به وفي طلاله خلفاء وأمرء هذه الدولة ، ومن على شاكلتهم من أفراد الطبقة الحاكمة الورراء والقادة . وكبار رجال الدولة ، ومن يرضى عنهم هؤلاء فيقرّبونهم . من شعراء ، وأدباء وعلماء . ومثقفين ، وخوارج . ومغنيين ، فهؤلاء جميعاً كانوا يعيشون عيشة هنيئة يتمتعون فيها بكل مظاهر الترف .

فالخلفاء ومن والاهم كانوا يعيشون في أبراجهم العاجية بعيداً عن العامة ، يمسحهم الحراس والحجّاب ، كما كان الشأن في بلاط الساسانيين ، كما كانت قصورهم في فخامتها وما تشتمل عليه من مظاهر الأبهة صورة مكررة لقصور الفرس إن لم تزد عليها^(٤) . هذا ، والأسباب التي دعت إلى ترف الطبقة الحاكمة واضحة لمن يدرس أحوال

١ - تاريخ الأدب العربي ص ٣٣٣ وما بعدها - دار الثقافة - بيروت - ط ١٩٧٨/٢٨ .
٢ - دراسات في تاريخ الأدب العربي - مطبعة المدني - الانب في عصره الذهبي ص ١٨٠ :/ عبد الرحمن عثمان .
٣ - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ص ٤٤ وما بعدها : د/ شوقي ضيف - دار المعارف - ط ١٩٨٦ - السنة .

نعصر الاقتصادية ، حيث كانت تحمل إلى خزانة الدولة حمولة الذهب والنصّة من أطراف الأرض .

ونذكر هنا مقولة "هارون الرشيد" حينما رأى سحابة تسير في السماء ، فقال لها :
"أمطري حيث شئت ، ففي أي مكان نزلت سيأتيني خراجك".

ومن مظاهر الزّف في هذا العصر :

١ - كثرة العطايا والصلّات التي كانت تُمنح للشعراء والأدباء ، ومن ذلك ما يروى من أن الخليفة المهديّ منح "مروان بن أبي حفصة" مائة ألف درهم على قصيدة مدحه بها حينما أهداه إياها . والتي مطلعها : "طرتك زائرة في خيالها" ؟
قيل : عندما سمعها "المهديّ" - وكان في صدر مصلاه - زحف حتى صار على بساط إعجاباً بها ، ثم قال له : كم هي ؟ قال "مروان" : مائة بيت .. فأمر له بمائة أنف درهم^(١).

فلقد انتهالت المنح والعطايا الحزيلة من الخلفاء العباسيين على من ابتسم له الحظّ وضحكت له الدنيا من الشعراء والأدباء والعلماء ، فهذا "الحصريّ" الذي كان يمدح السوق فيدأ به ما أن اتصل بـ "المتوكّل" حتى أغدق عليه العطايا والبهات التي جعلته يسير وخلفه العبيد والخدم .

ويروى أن "المأمون" كان كثير البذل والإغداق على حاشيته ، حتى قالوا : فرّق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف درهم^(٢).

وعلى الرغم من كثرة العطايا والبهات ، فإننا نجد من الشعراء من يتكوى النفاقة وضيّق ذات اليد مما جعلنا نعجب أشد العجب من ذلك . عندما نسمع شاعراً يقول :
غنى من الآداب لكنني إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل

١ - العصر العباسي الأول ص ٥ :

٢ - العصر العباسي الأول ص ٧ :

وأخر ينشغل بنحصيل لقمة العيش فيقول ،

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنعام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

٢- بناء القصور والمدن : من ذلك ما يروى من أن الخليفة "أبا جعفر المنصور" بذل الكثير من الأموال في بناء مدينة "بغداد" ، وما فعله الخليفة "الرشيد" في بناء قصره

المعروف ، والذي وصفه الشاعر "أشجع السلمي" بقوله:

قصر عليه تحية وسلام نثرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا خليفة والتقت للملك فيه سلامة ودوام
قصر سقوف المزن دون سقوفه فيه لأعلام الهدى أعلام

ولقد كان بناء القصور الفاخرة الشاهقة ، والإنفاق ببذخ على تأثيثها وتزيينها - من مميزات العصر . فقد بنى الخليفة "المنصور" قصر (الذهب) في "بغداد" على غرار "إيوان كسرى" ، كما بنى "بغداد" بصورة دائرية على غرار "مدينة المدائن" عاصمة "بلاد الفرس" .

٣- زرف بمنزل في المأكّل والمشرب والملبس والزينة واللّهو واللعب ، إلى غير ذلك من هذه المظاهر .

هذا عن العنى والفقر في المجتمع العباسي ..

أما عن ظهور بعض الطوائف على سطح الحياة الاجتماعية ، فقد وجدنا دعاة "الشعبوية" و "أهل الزندقة والإلحاد" ، وأهل المحون - ومع هؤلاء الزنادقة والملاحين وجد تيار معارض لهم ، هو "تيار الرهد" الذي شاع في العصر العباسي ، وتطور فيما بعد

إلى أن أصبح نواة للتصوف . كما سنوضح بعد قليل:

أما الشعبوية :

فهي نزعة تفخر بشعبها ضد العرب ، وأول من دعا إليها هم "الفرس" ، فقد كانوا

يفخرون بمجدهم التالد ، وحضارتهم التي سبقت كل الحضارات ، فقد كان الفرس على درجة عالية من الحضارة في سالف الأيام ، وقت أن كان العرب يعيشون حياة خشنة بين البوادي المقفرة والفيافي الواسعة ، وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى المساواة بين الناس جميعاً في ظله وتمت لوائه ، فقد نمت في أذهان الفرس هذه النزعة عندما وجدوا أنفسهم يعاملون معاملة سيئة في المجتمع الأموي ، وهؤلاء فرقتان :

فريق مقتصد معتدل ، وقف عند حد التسوية بين الغرب وغيرهم من الشعوب ؛ استناداً إلى تعاليم الإسلام التي نسوي بين الناس جميعاً :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

وفريق متطرف ، يسعى إلى ازدياء العرب ، والخط من قدراتهم ، وتفضيل الشعوب الأجنبية عليهم ، وهذا الفريق كان أكثره من الملاحدة والزنادقة الذين يغيضون الدين الحنيف ، وكل ما يتصل به من عرب وعروبة.

ووضع الشعوبية المتطرفون كتباً في ذكر منال العرب وحجائهم ، كما وضعوا قصصاً في الأدب تؤيد هذه الأفكار . من ذلك ما رواه "البيهقي" بن عدي في قصة طويلة تتلخص في أن رجلاً من "توخ" نزل غي من "بني عامر" ، فحرجت إليه جارية ، فقالت : من أنت ؟ فقال : من تميم . فذكرت له أبياتاً في ذم تميم .. فقال لها : لست من "تميم" ، بل أنا من قبيلة "عجل" .. فقالت مثل ذلك .. وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهي تروي الأبيات في ذمها ، حتى استنفذ القبائل ولما انتسب إلى "بني هاشم" قالت : أتعرف الحليفة يقول "بني هاشم" عودوا إلى تحلائكم .

ومنذ عصر بني أمية - وعلى مرأى ومسمع من "هشام بن عبد الملك" - يقول "إسماعيل بن يسار" طاعناً العرب في خفاء :

١ - سورة الحجرات : آية رقم (١٣) .

فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كسيف كنا في سالف الأحقاب
إذ تربي بناتنا وتدسون سفاهم بناتكم في التراب^(١)

فهو يفخر بقومه الفرس على العرب ، ويرمز للعرب بـ "أمام" ، فقد كان العرب يفاخرون بأبائهم ، وأنهم أعلى مكانة . وأرقى منزلة منهم ، ويؤكد الشاعر أن قومه أولى بالفخر من هؤلاء .

وفي هذا العصر وجدنا "أبا نواس" ، و"بشارا" ، و"الحزيمي" ، و"إسحاق بن إبراهيم الموصلي" يسيرون على هذا الدرب ، بل أشد ، وتمتلى بأشعارهم كتب الأدب والتاريخ والأدب دائماً صورة حياة المجتمع ، بارزة الملامح ، واضحة القسمات ، فترى فيها يعيم الناس وشقائهم ، وغناهم وبؤسهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وأنماط سلوكهم .

والمجتمع في العصر العباسي كان خليطاً من العرب والفرس ، والأتراك ، والزنج والروم ، والبربر ، والهنود وقد كثر اختلاط هذه الأجناس ، وامتزاجها عن طريق المجاورة والتعامل ، والتزاوج ، وكثر الغلمان والحواري في بيوت المترفين التي كانت بمجالس الشرب والغناء ، كما كثرت الخصومات الدينية والعقدية بسبب تعدد العناصر واختلاف الاتجاهات وكان لأهل السنة والمعتزلة والشيعة أكبر الأثر في الخصومة .

وعندما نستعرض دواوين الشعراء وكتب الأدب ، نجدها حافلة بتصوير مظاهر الحياة الاجتماعية بغناها وفقرها ، وجدها وهزلها ، ورضاها وسخطها ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فقد أدت حياة الترف ، وكثرة الحواري والغلمان في بيوت المترفين إلى شيوخ شعر الغناء ، واشتهر به "بشار بن برد" ، و"مطيع بن إياس" وأضرابهما ، وقد اندفعوا ينظمون مقطوعات قصيرة يثيرون بها مشاعر الحب والعتاب ، والصد والدلال ، وما يقترن بذلك

١ - القصيدة العباسية - قصايا واتجاهات ص ١٢٦ .

كله من محون . وخمر . وغزل فاصح مكشوف . لا يتوارى ولا يستتر .
 وكان الشعراء حين أحسوا بأنهم ينظمون هذا الشعر في الجوّاري لم يجدوا من الحرج
 ما كان يستشعره أسلافهم حين كانوا يتغزلون بالحرائر المحصنات من بنات العرب .
 وما ظنك بذلك المطاردة الصريحة الفاجرة التي يحدثنا "أبرنواس" عن نتائجها في رائدنا
 التي تجزئ منها الأبيات التالية :

وناهدة اللثيين من خدم القصر	سبتني بحسن الجيد والوجه والنحر
كلفت بما أبصرت من حسن وجهها	زماناً وما حب الكواعب من أمرى
فما زلت بما أبصرت في كل مشيد	ألينها والشعر من عقد السحر
إلى أن أجابت للوصال وأقبلت	على غير ميعاد إلى مع العصر
فقلت : اشربي إن كان هذا محرماً	ففي عقي يا ريم وزرك مع وزري

ونمك عن ذكر بقية القصة ، فهي نموذج واضح لأثر الجوّاري والمفتيات في المصامين
 الشعرية لذلك العصر .

ولم تكن الجوّاري كما لم يكن ديوع محاسن العاء والضرب هما السببين الوحيديين
 وراء شيوع طائفة الخلاعة والمجون . وما أنتحت من آثار في الشعر والأدب . بل إن تسع
 عمران الدولة وإردياد مصادر التروة قد ساعد من ناحية أخرى على الاستكثار من مساب
 اللهو ، ومع رغبة الخلفاء والأمراء والوزراء في الأدب والعلم . فإبهم سايروا الحصار
 فكابوا يعقدون مجالس الأنس والشراب ، يحضرها الشعراء والطرفاء والمغنون ، فكتر
 في الشعر أهل الخلاعة والمجون والتهتك .

وقد كان لهذه الحياة العائنة أثرها الأكيد في أدب هذه الفترة . ومن بين ما أسفرت عنه
 ديوع شعر "الخمر" وانتشاره بشكل لم يسبق له مثيل ، كما أسفرت أيضاً عن مطهر من
 مظاهر التهلك لم يلبث أن انعكس على الأدب العباسي ، وبخاصة الشعر ، وهذا المطهر
 هو "التسرى بالغلمان" ، فلم يبق شاعر من المقيمين في "بغداد" إلا واشتهر بغلام يعشقه

ويتعزل به ، ولم ينبج من هذا الدنس غير الذين ظلوا على أخلاقهم بعيدين عن مفسد المدنية^(١).

ومما يتصل بتأثير الحياة العابثة والحضارات والعقائد الدخيلة ، ظاهرة الزندقة التي فشت كثيراً في العصر العباسي ، فقد شاع الجدل الديني ، ومذاهب علم الكلام ، وتنوع البحث الفلسفي ، وقد اقترن اسم الزنادقة بالمجان .

وقد اشتهر الزندقة في هذا العصر كثيرون ، ومنهم طائفة غير قليلة من الشعراء والكتاب ، في مقدمتهم "الحمادون الثلاثة" : ("حماد بن عجرد" ، "حماد الراوية" ، "حماد بن الزيرقان") - و"بشار بن برد" ، و"ابن المقفع" ، و"مطيع بن إياس" ، و"صالح بن عبد القدوس" ، و"ابن منذر" وغيرهم .

فهذا "بشار" يذكر الظلام والنور ، ويجد عبادة النار في بينه القاتل ،
الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة قد كانت النار
وهو القاتل :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتدبهموا يا معشر الفجار
النار عنصرد وأتم طينة والطين لا يسموا سمو النار
وقد كانت نهايته وخيمة ، فقد ذاع أمره ، وفشا سره بين الناس ، حتى قتله "المهدي"
فوضع حداً لإلحاده وزندقته .

ومن تمام الصورة أن نشير إلى جانب آخر يقابل (جانب اللهو والمجون والزندقة) وهو جانب الإيمان والزهد الذي ألحنا إليه آنفاً ، ويمثل هذا إلى جانب كثرة كائنة من المسلمين في ذلك العصر بعضهم زهد ثمرداً على ما كان يراد من مطاهر الحلاعة والعث وبعضهم نتيجة عزوف تلقائي عن الجاه والسلطان . وبعضهم إيماناً بما في الزهد من قلة في متاع الحياة ومؤن العيش.

١ - في الشعر العباسي : د / محمد فتوح ص ٢٥ .

ومن هنا ذاعت في آفاق ذلك العصر أسماء الأتقياء . من أمثال : "سفيان الثوري
وموسى الأسوارى" ، و"عبد الله بن المبارك" ، و"سفيان بن عيينة" ، و"عمرو بن عبيد"
وغيرهم ممن لا يزال ورعهم وزهدهم في الجاه والسلطان مفخرة من مفاخر الحياة المسلمة
لذلك العهد .

ولعل أبرز مَنْ مثَّل هذا التيار في الإبداع الشعري هو "أبو العتاهية" الذي استقر به
الأمر في النهاية على إسلام راسخ ، وزهد في الدنيا ، وعزوف عن متع الحياة ومباهجها
ومن لطيف معانيه في تغيير شأن المال والحث على التحرر من أسرِه بإفناقه في وجوه الخير
قوله ،

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكة
ألا إنما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركة^(١)

ومن آثار العناصر الأجنبية في الحياة الاجتماعية تقليد العرب للعجم والزواج بغير
العربية ، والاندرج بالعنصر الأجنبي ، يقول الدكتور /عبد الرحمن عثمان : "وقد هاجر
العرب من الكوفة والبصرة والشام إلى عاصمة الخلافة العباسية . وأقاموا مع العجم
مجتمعاً جديداً له خصائصه الجديدة وطابعه المستحدث . وتلك أول مرحلة من مراحل
التغيير التي أكرهت العربي على أن يتنازل عن بعض طباعه ، ثم قبل مختاراً أن يمتزج
بالعنصر الأجنبي الذي كان يستعلى عليه من قبل ، فتزوج بغير العربية ، واكتسب طباعاً
كانت غريبة عنه .

والعرب قلدوا العجم في كل شئ حينذاك ، حتى في ردى العادات ، إلا قليلاً من
عصم الله - تعالى - فكننت ترى العربي في زى الوسط الذي يعيش فيه ، ويجعل طعامه
وشرايه على مثال أطعمتهم وأشربتهم ، وكان يخوض أحياناً في لهوهم ومتعهم .
ويضيق المقام عن ذكر كثير من النماذج الشعرية والنثرية التي تصور كل مظاهر الحياة

١ - في الشعر العباسي : د / محمد فتوح ص ٢٥ .

الاجتماعية ، وتكشف عن مدى تأثيرها في الحياة في هذا العصر ، وحسبنا ما سماء من
تداح ، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى قائمة المصادر والمراجع التي اهتمت بهذه الناحية .

ثالثاً ، المؤثرات الثقافية في أدب هذا العصر :

لقد شغلت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ، كما ظهر في هذا العصر عدد
كثير من العلماء والرواد والأوائل في مختلف فروع المعرفة آنذاك . فازدهرت علوم اللغة
العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة - كما ازدهرت العلوم الدينية والتشريعة .

❖ فني الفقه والتشريع طهر الأئمة الأجلاء : "مالك" ، و"أبو حنيفة" ، و"الشافعي"
و"أحمد بن حنبل" ، و"الحسن بن زكريا العدوي" ، و"يحيى بن صاعد" ، و"أبو بكر
بن محمد" ، و"أبو يعلى الموصلي" .

○ وفي الحديث مع نجم الأئمة الأعلام : الإمام "الخوارزمي" ، والإمام "مسلم"
وأصحاب السنن الستة

○ وفي علوم اللغة : "أبو عمرو بن العلاء" ، و"الخليل بن أحمد" ، و"سيبويه"
و"الكسائي" ، و"الأصمعي" ، و"أبو درستويه" ، و"الرجاج" ، و"الأحنس"
و"سفيان"

○ وفي رواية شعر وجمعه وقد اشتهر : "المفضل الضبي" ، و"حماد الراوية" ، و"أبو
عمرو النيسابري" ، و"أبو سلام" ، و"أبو الأعرابي"

○ ما الاشتغال بالأدب والتأليف فيه : فقد اشتهر في هذا العصر "أبو قتيبة" ، و"السرد"
و"الجاحظ" وغيرهم

○ وأما الشعراء فقد كانوا كثرة يصعب إحصاؤهم ، وأشهرهم "أبو العتاهية" ، و"سائر
بن برد" ، و"أبو تمام" ، و"أبو نواس" ، و"البحتري" ، و"أبو الرومي" ، و"أبو المعتز"
و"مسلم بن الوليد" ، وكثيرون غيرهم

○ وفي مجال الشر : اشتهر في هذا العصر "الجاحظ" ، و"أبو المنفع" .

○ وفي مجال الفلسفة والطب والعلوم : اشتهر "الكندي" ، و"الفارابي" .

وكان لهؤلاء دور كبير في إثراء المعرفة الإنسانية بما مدّوا الأدب بوجه خاص^(١). ولقد كان العصر العباسي الأول بحق بداية العصر الذهبي للعلوم والفنون، فقد بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل، ولا من بعد أثّرت فيه المعارف الإسلامية، وازدهرت الآداب العربية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً للبحث، ومجالاً للتفكير بما تيسر له من سعة الفكر وعمق الثقافة، وكان لهذه النهضة بواعث عدة، نذكر منها:

- ١ - جمع وتدوين التراث العربي - شعره، ونثره، وتاريخه، ومعارف المختلفة - حتى أصبح مادة ثقافية ميسورة للناس يقرأونها ويحفظونها، ويدبرون الحوار حولها في دراسة نقدية، تبين عناصر الجمال والقبح فيها.
 - ٢ - قننت قواعد اللغة في هذا العصر، بل في أوائله مثلة في كتاب سيبويه، وآراء سابقيه ومعاصريه، كما استنبطت موارد الشعر وقوافيه.
 - ٣ - جمعت اللغة وفُسرَت مفرداتها في معاجم خاصة، كـ "العين" كما فُسرَت مفردات الشعر الغريبة في "كتاب المعاني".
 - ٤ - دُوِّنت معارف الجاهليين والإسلاميين الجغرافية، والفلكية، والطبية، والتاريخية والحكايات والأساطير الشعبية، والعادات القديمة في كتب اختص بعضها بجانب منها ككتّابي "الأنوار"، والميسر والقُداح لابن قتيبة، وتوزعت بعضها في كتب غير متخصصة، ككتاب "الحيوان" للجاحظ.
 - ٥ - استنبطت الأحكام الشرعية من مصادرها بعد الصراع الفكري الطويل عليها وفُسر القرآن الكريم، ودُوِّن الحديث الشريف^(٢).
- وفي علماء البصرة والكوفة من اللغويين ورواة الشعر يقول الدكتور شوقي ضيف:
- "تعاقت في هذا العصر ثلاثة أجيال، ورأس الجيل الأول في البصرة 'أبو عمرو بن العلاء' "

١ - محاضرات في تاريخ الأدب العباسي: د / علي جاد الحق ص ٢.

٢ - المرجع السابق ص ٣.

وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أخذت عنهم قراءات القرآن الكريم .
وأشهر الجليل التالي له "خلف الأحمر" ، و"الأصمعي" ، وكان ثقة ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "الأصمعيات" بعيدة الشهرة ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين "امرئ القيس" ، و"النابعة" ، و"زهير" ، و"طرفة" ، و"عنتر" و"علقمة بن عبيدة" .

وأهم أفراد الجيل الثالث من لغويي البصرة "محمد بن سلام الجمحي" صاحب "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين" ، وهو كتاب نفيس ، إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ، ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .
ورأس الجيل الأول من لغويي الكوفة "حماد الراوية" ، وكان عالماً بالشعر والعريب وكان "المفضل القسبي" ثقة صدقاً ، وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "لفصليات" أنفَس مجموعات الشعر القديم .

وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة "أبو عمرو الشيباني" ، ويقال : إنه كتب أشعار ياف وثلاثين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره "أبن الأعرابي" ، وقد رويت عنه دواوين كثيرة

ومن أفراد الجيل الثالث "أبو عبيدة القاسم بن سلام" ، ويقال : إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه . وله مصنفات كثيرة من أشهرها "غريب الحديث"^١ .

الثقافات الوافدة وحركة الترجمة

ذكر الدكتور / شوقي ضيف - أن من أسباب ازدهار الحركتين : العلمية وادبية - الاتصال الحثيث بين الثقافة العربية الحالصة ، وبين ثقافات الأمم المستعربة وم بينها من معارف وعلم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر "بني أمية" طريقين :
الأول : طريق المتألفات مع المستعربين .

١ - تاريخ الأدب العباسي - العصر العباسي الأول : د / شوقي ضيف ص ١١٩ : ١٢٠ .

الثاني : طريق النقل والترجمة .

وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ؛ إذ لا يعدوا ما يذكر من أنه ترجمت "خلال بن يزيد بن معاوية" كتب في الصنعة ، والطب ، والنجوم .

أما في هذا العصر فقد كانت ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذفها ، ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية .

وكان كثير من المصنفات اليونانية قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلهم لا في نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضاً في نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل "ابن المقفع" لمنطق "أرسطو" .

وقد نقل "كليلة ودمنة" الهندي الأصل إلى اللغة العربية . وفي ذلك إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلهم .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاطمة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة ، وينفقون عليه الأموال الطائلة . وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، ويعد الحليفة "أبو جعفر المنصور" من أوائل الخلفاء العباسيين المهتمين بحركة الترجمة .

ولقد نشطت الترجمة نشاطاً ملحوظاً في عصر "الرشد" ووزرائه البرامكة .

وكان مما أزكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة ، وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها ، وجلب الكتب إليها من بلاد الروم .

وللبرامكة فضل لا ينكر في حركة الترجمة ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية ، واليونانية ، والفارسية ، والهندية وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاباتها في عصر "المأمون" ؛ إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً ، كما الحق بها مرصده المشهور^(١) .

وعن اتصال الثقافة العربية بالثقافة اليونانية يقول الدكتور / طه حسين : "لما جاءت

١ - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ص ١٠٩ وما بعدها بصرف - د/ شوقي ضيف .

البيضة العلمية في العصر العباسي ، وكان كثير من كتب اليونان قد تُرجم إلى اللغة السريانية أحد 'الساطرة' و'البعاقة' يترجمون هذه الكتب اليونانية الأصل من السريانية إلى العربية . فقلل إلى العربية أهم مؤلفات "أرسطو" في الفلسفة وغيرها ، وبعض مؤلفات "أفلاطون" في الفلسفة ، وأهم كتب "جالينوس" في الطب ، فترسبت هذه العلوم . وكان لترجمة المنطق اليوناني أثر واضح في العلوم المختلفة ، كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول العلماء في ذلك العصر^(١).

والذي غلب أن تؤكد عليه هنا : أن العرب لم يتأثروا كثيراً بالأدب اليوناني كما تأثروا بالفلسفة والطب والرياضة . فلم ينقلوا الروايات اليونانية ، ولعل السبب في ذلك : أن الأدب اليوناني كان مملوئاً بأسماء الآلهة اليونانية فلم يستسيغوها ، ولأن هناك فرقاً واضحاً بين الفلسفة والعلم ، وبين الفن والأدب : فالفلسفة والعلم يرجعان إلى العقل والعقل عالمي يشترك الناس كلهم في قضايا ونتائج ، وأما الفن والأدب فمرجعها إلى 'الدوق' ، والذوق يختلف بين الشعوب ؛ لذلك قد استساغوا الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني في سهولة ، ولم يستسيغوا الفنون والآداب اليونانية ، فلم ينقلوها ولم يعوا بها العبدية التامة^(٢).

آثار الفرس في الأدب العربي :

أفادت الترجمة الفارسية إلى العربية الأدب العربي ، وأمدته بمعان قيمة يرجع معظم إلى موضوعين :

الأول : الأخلاق والآداب والسياسة ، وما يتصل بها ، وقد ترجموا في هذا الباب طائفة صالحة . تداولت الكتب العربية ونشأت في الأدب العربي . مثل كتاب "كليلة ودمنة" . وهو كتاب هندي الأصل . ولكن الفرس زادوا فيه ، وصنفوه صيغة فارسية وكتب أخرى

١ - التوجيه الأدبي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ / د / "ضه حسين" .

٢ - التوجيه الأدبي ص ٢٠٧ : د / "طه حسين" .

وقد أمدت هذه الترجمة الأدب العربي بثروة من الحكيم والمواعظ ، والسنن الرشيدة ظهرت في كثير من الكتب التي ألّفت باللغة العربية ، مثل "الأدب الكبير" ، و"الأدب الصغير" لابن المقفع .

والثاني : الذي أجدت ترجمته على الأدب العربي التاريخ والقصص والأساطير ، فقد ترجم كتاب "خدامى نامه" أو "سير الملوك" ، وكتاب "التاج في سيرة أنوشروان" ترجمها "عبد الله بن المقفع" ، وغير ذلك من كتب التواريخ والسير . وكان للفرس تأثير آخر في الأدب ، بما كتبوا فيه ، فأودعوه معارفهم ونتائج قراءتهم فلما دخل الفرس في الإسلام وخالطوا العرب ، واتخذوا العربية لساناً للعلم والأدب - نبغ منهم مؤلفون في كل من العلوم العربية والإسلامية^(١).

آثار الهند في الأدب العربي :

دخلت المعارف الهندية إلى الأدب العربي عن طريقين :

الأول : اتصال الأمويين بالأدب الفارسية ، وكانت "إيران" منذ الأزمان القديمة ذات صلة بالهند ، بالاشتراك في الحضارة الآرية القديمة ، وبالمجاورة.

الثاني : الاتصال المباشر بين العرب والهند بنزوح العرب إلى الهند ، ونزوح بعض الهنود إلى البلاد العربية ، وبالنقل من اللغة الهندية إلى العربية..

وقد ذاعت بعض المذاهب الهندية في العالم الإسلامي حتى دخلت في الأدب فمذهب التناسخ مذهب هندي المنشأ فيما يظن . وفي هذا المجال نذكر كتاب "كليلة ودمنة" وقصصاً هندية ترجمت إلى العربية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية^(٢).

وخلاصة القول : إن المسلمين نقلوا إلى لغتهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة ، والطب والنجوم ، والرياضة والأدب عند الأمم المتمدينة ، وكان أكثر نقلهم

١ - المرجع السابق ص ٢٠٩ وما بعدها .

٢ - المرجع السابق ص ٢١٧ .

عن اليونانية والفارسية والهندية ، وقد مرت حركة الترجمة من الثقافات الأجنبية إلى العربية
عمرحتين أساسيتين :

المرحلة الأولى : من عصر الخليفة "أبي جعفر المنصور" حتى عصر "الرشد" ، فقد كان
"المنصور" حريصاً على إذاعة العلم بين الناس ، فأمر بترجمة الطب والنجوم ؛ لأنه
كان يشكو المرض ويلتمس العلاج ، فإذا انتهى إليه نبأ كتاب أعجمي في الطب
فتح خزانته لمس يترجم له ورفع إليه مكافئه ، وكان - كما ذكرنا - يعتقد
في النجوم ومطالعها على أنها سعود أو نحوس . وكان له الفضل في تأسيس معهد
الطب ، وعهد بإدارته والقيام عليه إلى طبيب أعجمي .

المرحلة الثانية : وفي عصر "الرشد" ، وهو عصر الأمن والرخاء تنشطت الترجمة واتسع
نطاقها . فقد أوفد رسله إلى جمع الكتب القديمة ، كما ترجموا له كتباً في الطب
والنجوم والفلسفة ، إلى جانب ما ترجموا له من المنطق والطبيعة . وقد كان
وراءه "البرامكة" على غرارهم من إقبال على العلم ، وحرص على بعث تراثهم
الفارسي ، ذلك التراث الذي تربطهم به ذكريات عزيزة .

ولما ولي "المأمون" الخلافة كان غرس الترجمة قد استقام عود ، وأتى أكمله ضعفين
م تلاقت الأفكار في طلاله ، وتكاثفت الثقافات . واجتمع إلى جمال اللغة العربية روعة
إخوتها من اللغات الأخرى حينذاك . وتوج "المأمون" تلك النهضة الفكرية بترجمة كل
ما يعنيه من تراث الأمم الأخرى^١ .

تطور البيئة الأدبية في هذا العصر :

عندما آلت الخلافة إلى بني العباس تطورت البيئة العربية ، فتطورت تبعاً لذلك
البيئة الأدبية . فلا نكاد نتقدم ربع قرن في المائة الثانية الهجرية حتى يطل الموالى ، وقد أثرت
فيهم علاقات جديدة ، وأسباب حضارية مختلفة .

١ - دراسات في تاريخ الأدب العربي في عصره الذهبي ص ٣٠ وما بعدها .

وكان لا بد أن يختلف الأمر ، ويجيد القصد عن مذهب الأوائل ، ويشكل القصيد من ثم مذهباً آخر .. ولقد ساعد في الابتعاد عن روح القديم ما رأينا من تطور الحياة الاجتماعية قبل ، وما صاحب ذلك من وقوف الناس على مذاهب جديدة في الفكر ، وفي العيش فقد ابتعد الأدب شيئاً عن البادية بعد أن بهت صورتها ، واختلفت معالمها ، وخرب منها ما كان عماراً^(١).

ولا يعنى هذا أن السليقة العربية قد انتقضت في نفوس العباسيين ، أو حتى لدى الشعراء الذين ماتوا يحسنون اللغة الفارسية ، كلا ، فقد كان الشعراء إلى جانب إجادتهم للغة الفارسية كانوا حاذقين بأساليب اللغة العربية ، بارعين فيها ، من أمثال "أبي نواس" الذي يقول فيه "الجاحظ" : "ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من "أبي نواس" ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراد^(٢).

و"بشار" الذي ذكر الرواة أنه أنشد "خلفاً الأحمر" قصيدته في "مسلم بن قتيبة" ، بكراً صاحبي قبل التهجير إلى ذاك النجاح في التبكير نلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال : "بلغنى أن مسلماً يشأى بالغريب ، فأحببت أن أرد عليه ما لا يعرفه" ، وقال له "خلف" : "لو قلت مكان إن ذاك النجاح في التبكير" : "بكراً فالنجاح في التبكير" كان أحسن. فأجابه "بشار" : "إنى بنيتها أعرابية وحشية . فقلت : "إن ذاك النجاح في التبكير" كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت : "بكراً فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين"^(٣).

إلا أن التحضر قد دفع أدباء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسعة بين لغة البدو والذاكرة بالكلمات الخوشية ولغة العامة الذاكرة بالكلمات البتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال .. و"بشار" في طلبه من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد.

١ - الحياة الأدبية في البصرة حتى بداية القرن الثلثي الهجرى ص ٣٥٦ وما بعدها : د/ أحمد كمال ركي

٢ - تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ص ١٤٣ وما بعدها : د/ شوقي ضيف

ويقول الدكتور / عبد الرحمن عثمان في تطور البيئة العربية والأدبية في العصر العباسي الأول : "لما آلت الخلافة إلى العباسيين ، وتغير الدم العربي في الربع الأخير من القرن الثاني تأثر الشعر العربي في طريقته ، نحى منحى الرقة ، ونزل عن أسلوبه القديم ونهجه الذي كان يصدر عن ذوق عربي خالص ، فوصف العرب وهم خارج جريرتهم بيئتهم الجديدة .. وبقيام الدولة العباسية انتقلت الزعامة الأدبية من الحجاز ودمشق إلى عاصمتهم "بغداد" ، فقصدها الأدباء من كل فج ، وهوت إليها أفئدة الفنانين من شتى الآفاق ، لأنها قلب الممكة الإسلامية الحافق بالشعر والعامر بحب الفنون ، ولأن في "بغداد" عليه القوم من مشايخ بني هاشم ، وأجاويد بني برمك ، وديدن الشعراء أن تختدبهم الملح ، وأن تستهوينه حياة الترف والعيم"^١.

وعلى الرغم مما أحاط بالأدباء من مطاهر الحضارة ، فإنهم - كما سبق - كانوا قريبين غيب بالدائرة . ويسرعون في شعرهم عن عرق بدوى عريق تتجلى فيه "المواهب الفطرية" . وقد اجتمعت للأدب في هذا العصر عوامل أدت إلى رقيه . وإزدهاره ربما لم نجتمع له في عصر آخر كما سيأتي

ازدهار الأدب في العصر العباسي الأول :

قلنا إنه اجتمعت للأدب في هذا العصر عوامل كثيرة دفعت به إلى الرقي والازدهار وهذه العوامل ترجع إلى "التغيرات التي طرأت على الحياة العامة بكل صورها في هذا العصر ويمكن أن نوجز هذه العوامل فيما يأتي ، -

١ - فقد كانت للخلفاء والأمراء مجالس تحولت إلى ما يشبه ندوات علمية وأدبية بتناظر فيها العلماء . وتفرح فيها بموضوعات مختلفة للمناقشة والحوار .

٢ - ومن العوامل التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال المختص بين الثقافة العربية الخالصة ، وبين ثقافات الألفاظ المغلوبة المستعربة

١ - راجعت في تاريخ الأدب العربي "لادب في عصره الذهبي" ص: ٣

وما طوي فيها من معارف وعلوم .

٣ - كذلك كان للأسواق الأدبية دور كبير في إثراء الحركتين العلمية والأدبية ، ومن أشهر هذه الأسواق ، سوق "المريد" ، وسوق "الكناسة" بالعراق ، وقد راجت فيها حركة شعرية وأدبية ونقدية .

٤ - كذلك كان للرقى الحضاري الذي عم أرجاء الدولة أثره في خيال الأدباء ، وصداه في شعرهم ونثرهم ، فقد كان لتطور الحياة ، وتغيرها كبير الأثر في تطور الشعر وتنوع فنونه ، فكثره المربيات ، وتعدد أنواعها ، واختلاف أنماط التفكير ، وتباين العادات والتقاليد والأخلاق - كل ذلك استدعى من الأدب نشاطاً جديداً حتى يتلاءم الأدب مع ما استحدثته البيئة والمجتمع .

٥ - كذلك كان لازدهار الحركة الثقافية في هذا العصر عن طريق التأليف والترجمة والمناظرة دوراً في ازدهار الحركة الأدبية ، فمن الحقائق الثابتة أن ثقافة الأديب تلعب دوراً كبيراً في أدبه ، حيث تنمي مداركه ، وتوسع من أفقه وتعدد بالأغراض والأفكار ، وتضيف إليه ألواناً من الأخيلة ، وكماً هائلاً من مفردات اللغة وتراكيبها .

بيئات الأدب الجديدة في العصر العباسي الأول :

انتقلت عاصمة الخلافة إلى "بغداد" عندما آلت الخلافة إلى العباسيين ، فقد رأى العباسيون أن يجعلوا عاصمة دولتهم في بلاد أنصاريهم الفرس ، فانخذلوا مدينة "بغداد" مقراً للخلافة ، وأحاطوا سلطانتهم بمظاهر الترف التي كانت للأكاسرة ، من قصور مشايخة ونظام مهيب يليق بالجالس على العرس ، وأعاتبهم على ذلك كثرة الموارد في الدولة .

وببلاد فارس تمتاز عن "جزيرة العرب" بما حببها الطبيعة من جمال وخصب فالسائين النظرة هنا وهناك ، والأنهار والجداول تهب الحياة للسهول الفسيحة ، فتبت الثمرات في وفرة وكرم . والأمطار تكلل رؤوس الحمال بمورق الأشجار . ومونق النيات وللفرس عادات من الترف نشئوا عليها منذ نعومة أظفارهم ، ولهم تقاليد ورثوها من أسلافهم رأى العرب هذا الإقليم الجديد فيهرهم جماله ، وسحرتهم فتته .

كما هجر كثير من غرب "الكوفة" و"البصرة" و"التام" و"قلب الجزيرة العربية" عاصمة الخلافة العباسية ، وأقاموا مع العجم مجتمعاً جديداً . له خصائصه الجديدة ، وطابعه المستحدث .

وبالإضافة إلى بيئة "بغداد" العاصمة العباسية وجدت في "العراق" بيئات ازدهرت فيها الحياة الأدبية . وأهم هذه البيئات : البصرة ، والكوفة .

أما "البصرة" : فإن النثر كما يقول الدكتور / أحمد كمال زكي : لم يعد مقصوراً على الروايات الشعبية ، ولا على المواعظ الدينية ، وإنما تحول إلى دفاتر ، وإلى كتب لاسيما بعد أن يؤدي "ابن المقفع" دوره ، فاكسب النثر صفة علمية ، ولم يعد وقفاً على عرض الفصاحة وقوة الأسلوب .

وهو مع ذلك يمثل ازدهاراً مهد حياة نصية مرّ بها النثر بعد ذلك في نهاية القرن الثاني والقرن الثالث على يد "الحافظ" . و"أبي الحسن المدائني" الذي يكثر "الجاحظ" من الرواية عنه . و"سهل بن هارون" أيضاً .

أما التعرف فلقد خرج عن السياسة والهاء والمديح - كموضوعات أساسية - إلى التعبير عن حياة العتس . ووجد المحددون أن واحداً كـ "زيد بن مفرغ" قد فتح لهم الباب لاستعمال ألفاظ العامة . فخرجوا إليهم ليمسح على قصيدهم روح حفيف رشيق . وهذا يرى شعراء لا يتنون بصفة رحيم ، ولا ولاء نرى "تباراً" ، و"أبا سواس" ، والحسين الخنيج و"أبي أبي عينية"

وعلى الرغم من أن المديح كان وظيفة الشاعر الأساسية ، وأن النقاد كانوا يشترطون اشتراطات تعتبر جامدة رجعية في التقبيل العربية ، فإن الشعراء قد استطاعوا أن يفلتوا من أسر الجمود والرجعية . حين صدروا للعامة بشعر يخالف الشعر الذي يردون به على الخاصة ومن ثم مثلوا أروع عصور الشعر البصري .

ويقول الدكتور / شوقي ضيف - التوازن بين الثقافة العربية والثقافة الراقدة - وقد أصبح العرب ورتة الهند ، والفرس ، واليونان ، والأمم السابقة ، والأمم المصرية القديمة

وبحث كونوا من هذا الإرث حضارتهم العربية .

وقد ثبت العباسيون هذه الحضارة على قواعد راسخة من التوازن الوثيق بين الثقافة العربية الموروثة ، وثقافتهم الحديثة ، ومن أهم البيئات التي فرضت عليها قواعد التوازن بين الماضي والحاضر سلطانها بيئة الشعر والشعراء ، فقد مضت توازن بينهما بالقسطاس بحيث لا يغنى أحد الطرفين على صاحبه .

وبذلك احتفظ الشاعر العباسي في "البصرة ، والكوفة ، وبغداد" لأمتهم بمقوماتها اللغوية ، والفنية الموروثة ، ولم يفرض هذه المقومات للغناء ، بل أتاح لها كل ما يمكن من أسباب الحياة والازدهار ، إنشاء نماها ، ومد طاقاتها بما أوتى من ثقافة حديثة .

انتقال الغناء من الشام إلى العراق :-

في هذا العصر العباسي تحول الغناء ، وما يستتبعه من رقص وموسيقى من الشام إلى العراق مع الملك العربي والدولة العربية ، وكان لذلك أسباب مختلفة ، يرجع بعضها إلى اتصال أهل العراق بالبلاط الأموي .. ويرجع بعضها إلى أسباب فارسية ، فإن المعروف أن الفرس مشغولون بالملاهي والطرب ..

وهنا نلاحظ اتصال الغناء بالشعر العربي في العراق اتصالاً وثيقاً ، وكان تأثيره بعيداً في الشعر والشعراء . فقد كان المغنون والمغنيات يغنون في الشعر الحديث أمثال "بشار" ومطيع بن إياس" وأضرابهما .

وبهذا ذكر الدكتور / "طه حسين" - اتساع موضوعات الشعر بعد قيام الدولة العباسية في الشام والعراق : عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان الشعر شيئاً فشيئاً ، واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آخر العصر الأموي ، وكان من أسباب هذا : اشتداد الاتصال بين العرب الفرس وغيرهم من الموالي في الشام ، والحزيرة ، والعراق . ومن أهم هذه الأسباب تسلط الفرس والموالي ، ووصول الأمة العربية الإسلامي العربي طور التسوية

بين العرب وعبرهم من 'الموالي' في الحقوق^١

وقد تغيرت طبيعة الشعر في هذا العصر - كما يقول الدكتور / طه حسين - ليس عربياً إداً أن تتغير طبيعة الشعر في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث ، وأن تكثر موضوعاته وأن يراحم الشعر حتى يسبقه ، فقد كان الشعر لا يكاد يتجاوز الشعر السياسي والتاريخي .

أما في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث فقد أصبح الشعر فناً تؤدي فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ، وأصبح بعد هذا فن ترف وألهو يقوم مقام الشعر في إرضاء الشعور^٢ .

ومشير الأستاذ / أحمد حسن الزيات إلى تطور حركة الأدب بعد أن انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة . وقاعدة الملك ومقر الحند ، ومقل الأدب . فلما أمال الله العباسيين من الأمويين ، والفرس من العرب وبعدها من دمشق فترت حركة الأدب في الشام ، فما كان يصدر عنها ولا إليها ، حتى تلكت "بو حمدان" في القرن الرابع على "حلب" .

والطريقة العالمية على أهل الشام في الشعر هي طريقة "المحتري" في إظهار اللفظ الجزل والأسلوب المصيح السهل ، دون تعمق في المعنى .

وكفسي الشام فحراً أن أعادت إلى العرب في "أبي تمام" و"المحتري" وغيرهم سبق الشعر بعد أن غلبت عليهم متعربوا الفرس . وأبناء الموالى في صدر هذا العصر^٣ .

ومن شعراء "مصر" في القرن الثاني "سعيد بن مقبل" الذي يبدو أنه كان يعيش أيام "المجدي" . وأيام "الرشيد" . إذ يذكر له "لكندي" أبياتاً في مقتل "موسى بن مصعب" وإلى "مصر" أيام "المجدي" الذي قتله أهل الحرف . ومنها :

١ - ابن رماحه في الشعر العربي - / توفيق صيف - ط - دار المعارف ص ٥٩

٢ - المرجع السابق

٣ - درج الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٣٢٨ - ٣٢٩

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوف لا تدين لمترفي
فما برحت فيه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف
أما عن بقية البيئات الأدبية في "الحجاز" و"الشام" وحضرموت فيمكننا
أن نقول مطمئنين : إن الحركة الأدبية فيها قد انتقلت إلى العراق شيئاً فشيئاً
منذ بداية القرن الثاني حتى استقرت فيه تماماً .

والحقيقة أن "العراق" كان منذ القرن الأول أكثر البلاد الإسلامية نشاطاً فكرياً ، وكان
أحقها بأن يكون مركزاً للحركة العلمية والأدبية على السواء ، لولا أن الخلافة الأموية
اجتذبت العلماء والشعراء حولها في دمشق ، فما زالت تلك الخلافة عاد "العراق" مركزه
الذي كان جديراً به لعدة أسباب ، يجعلها "أحمد أمين" فيما يلي : -
أولاً : أسس العراق على مدنات قديمة ، لها علم مأثور ، فكان "السريانيون" منتشرين قبل
الفتح ، ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية .

ثانياً : كثرة الحروب ، والفتن في العراق .

ثالثاً : كان للقبائل العربية النازلة بالبصري رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شئ برؤساء
القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم ، ووقوف الشعراء ببابهم ، وهؤلاء
الرؤساء كانوا مصدراً لحياة أدبية قوية .

هذه الأسباب إذن - إلى جانب انتقال مركز الخلافة إلى "العراق" - هي التي جعلت
له هذه المكانة في الحياة الأدبية في القرن الثاني ، وسلطت عليه الأضواء من كل مكان
وكان إنشاء "بغداد" سبباً في جلب شعراء البيئات الإسلامية الأخرى إلى "العراق" .

ويقول الدكتور / "شوقي ضيف" في حالة الشعر في مصر في العصر العباسي : "نجد
مصر تأخذ بأسباب النهضة الفنية التي ستقبل عليها في العصر الفاطمي ، ومع ذلك فلا يزال
بينها وبين "بغداد" بون بعيد" .

١ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د/ شوقي ضيف ص ٣٦٤ .

ازدهار النثر وأسبابه :

لقد نهأت أسباب أدت إلى ازدهار النثر في هذا العصر وبطوره، ومنها:
١ - الاستفادة من الثقافات والأفكار الأحيية التي كان لها تأثيرها في الحضارة العربية وقد تم ذلك عن طريقين :

الأول : النقل والترجمة ، وهو طريق عنى به الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ، وخاصة البرامكة" إلى أبعد حد ممكن . كما عنى به أفراد مختلفون مثل "ابن المقفع" .
وطريق ثان : لعله كان أوسع محررى . حر تعريب شعوب الشرق الأوسط ، وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقبتوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعرفهم فقط بل انتقلوا بعاداتهم وتقاليدهم . مما هيا لتطوير المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام . وهى مدينة قوامها مزيح من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية . ومن الأدب العربي شعره ونثره . ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الخديج"

٢ - ويذكر الدكتور / "طه حسين" الأسباب التي قوى بها سلطان النثر وعظم أمره وسبب الاتصال بين العرب والأمة الأخرى . والمساواة بين العرب وغيرهم من الخوا في الحقوق والحرية التي يتمتع بها غير العرب . ووصولهم إلى أعلى المناصب وقد شجع كل ذلك على الترجمة والعناية بالثقافة الأجنبية.
معندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئا فشيئا . واتسعت موضوعاته وكبر من اسباب هذا الاتصال بين العرب والفارس وغيرهم

ومن أهم الأسباب تسنط العرب والمسلمين ، ووصول الأمة العربية الإسلامية إلى طور "التسوية بين العرب وغيرهم
وفي العصر العباسي عندما تسلط الأتراك وتحققت المساواة بينهم وبين العرب

١ - فريخ اليت العربى (عصر العباسي الاول) : / شوقي صبيح ص ٤١ .

وأصبح سلطانهم قوياً ، أحسن هؤلاء الأجانب في أنفسهم قوة ساعدتهم على أن يملكوا لثقافتهم الأجنبية ، كما مكنوا لأنفسهم من المساواة بالعرب الخالص ، فظهرت فكرة الإكثار من الترجمة ، والعناية بالثقافة اليونانية والفارسية ، ورأينا الوزراء ومن يتصل بهم ينقلون إلى العربية ما كان عند "الفرس" و"اليونان" من علوم^(١).

٣- تعدد شعب النثر وفروعه : فقد أصبح فيه النثر العلمي ، والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه النثر التاريخي على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر باللغات الأجنبية ، وخاصة اللغة الفارسية على ما هو معروف عن "ابن المقفع" وترجمته عن هذه القصص "كليلة ودمنة" ، ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ، ونظمهم في السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية ، وفي نشوء اليوم باسم "المقالات"^(٢).

ويجمل الدكتور / "شوقي ضيف" عوامل تطور وإندهار النثر، فيقول، "إن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر ، ولكي ينمو ويزدهر فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي إذ أخذت تغزوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية ، كما أخذت تغزوه الثقافات الأجنبية ، وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني .

وقد أነعت الفروع الجديدة في شجرتها الكبيرة . وأخذت تتكون فيها أزهار ذاكبة الشذى ، بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين".

وفي عوامل تطور النثر يقول: "إن النثر تطور تطوراً خطيراً في العصر العباسي الأول فقد حملت أوائمه الثقافات الأجنبية المختلفة ، من يونانية وفارسية ، وهندية ، وسريانية حملاً لا يزال يروع السائحين ، وكأننا كان في المتعة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يسر هذه الثقافات ، ولا تتأذى عليها واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل ، وفي مقدمتهم "ابن

١ - من حديث الشعر وانتشر : د/ طه حسين - دار المعارف ص ٣٧ وما بعدها .

٢ - العصر العباسي الأول : د/ شوقي ضيف ص ٤٢٢ .

المقفع^١، ثم رعت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها نفقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نقل إلى العربية ، ونجيت يمين أن نسمى العصر العباسي الأول "عصر النقل والترجمة".

مدايريه

مدرسة ابن المقفع :

- التعريف به :

"عبد الله بن المقفع" من أصل فارسي . ولد حوالي سنة ١٠٦هـ . ونشأ بالعصرة وفيها تلقى العلم والأدب . وكان ذكياً القلب . فصيح المنطق ، صليحاً في أدب العرب والفرس مقدماً في بلاغة اللسان ، والعلم والترجمة . واختراع المعاني . وابتداع السير . من ترجماته ومؤلفاته : "كليلة ودمنة" ، و"الأدب الكبير" . و"الأدب الصغير" وقتل سنة ١٤٢هـ^(١) .

مدرسته :

و"ابن المقفع" إمام الطبقة الأولى من الكتاب ، وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عرفت به وأخذت عنه . وهي : تنويع العبارة ، وتنطيع الجملة والمراوحة بين الكلمات ، وتوخي السهولة والعناية بالمعنى ، والزهد في التوسع . وكان "ابن المقفع" بارعاً في البحث والتحليل ، وفي سرد القصص وصرب الأمثال ثم إنه يأتي بالبحث وبالقصص والأمثال متداخلة في استطراد محكم ، يبدأ قصة فبدأ سار فيها شوطاً في بعض الأحيان ، ويكون البحث والتحليل والحكم موزعة بين أقسام لقصة الواحدة . وبين الأمثال المضروبة .

والألفاظ عند "ابن المقفع" فصيحة ، إلا إذا اضطر إلى استعمال ألفاظ فنية، مثل شبه (النس ، احتلط) ، مرية (شك ريب) ، خافر (ماقص للعهد) ، السباح (الأرض الميمنة)

١ - تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ص ٢٥٣ وما بعدها ، وتريخ الأندلس لغري . بروكس ٩٢/٣

والتركيب عنده صحيح سهل ، إلا أن جملة طويلة متعاقبة مما يؤدي أحياناً إلى شئ من الغموض في التعبير.

و"ابن المقفع" بارع في التصرف بأحرف الجر الكثيرة ، وبأسماء الموصول وأسلوبه خال من الصناعة إلا ما يقع له منها عنفاً مرة بعد مرة ، وفي مواقف التهكم في الأكثر.

كان "ابن المقفع" كاتباً مترسلاً (موظفاً في الديوان أيام بنى أمية) ، ولكن شهرته تقوم على كتاب "كلیلة ودمنة" ، وهو أشهر كتبه ، وأعظمها ، وأدلىها على أسلوبه ، وأجلها في تاريخ الكتابة الأدبية ، وعليه تقوم شهرته الأدبية.

في كتاب "كلیلة ودمنة" أربع مقدمات ، ثم خمسة عشر باباً تدور حول أسئلة يلقيها ملك من ملوك الهند بدعوته "دبشيم" على فيلسوف معاصر له يزعمون أن اسمه "يبدبا" وقد أجاب "يبدبا" على هذه الأسئلة بأجوبة مناسبة ، ثم ضرب على ما أجاب به أمثلة واستخرج من كل شئ مغزى صرح به تصریحاً أو تركه ملموحاً .

وكتاب "الأدب الصغير" : مجموع حكم يسوقها "ابن المقفع" مجردة من القصص والأمثال ، على خلاف أسلوب "كلیلة ودمنة".

"الأدب الكبير" : مجموع حكم أكبر من "الأدب الصغير" . وفيه كلام مبسوط على الصلة بين الحكام والرعية أكثر مما في "الأدب الصغير" ، ثم فيه أمور تتعلق بالمخالفة بين الناس أنفسهم^(١).

"عمرو بن مسعدة" :

هو "أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد (سعد) بن ضول ، أصله تركي ، قيل من بيت الملك في "جرجان".

لما فتح "يزيد بن المهلب بن أبي صفرة" "جرجان" . في خلافة "سليمان بن عبد الملك"

١ - تاريخ الأدب العربي - الأعرس العباسية : تأليف: عمر فروخ ص ٥٢ وما بعدها .

• الأدب الكبير والأدب الصغير : يوسف خليفة - بيروت - مكتبة البيان .

• الأدب الصغير : أحمد زكي - القاهرة ١٣٣٩ هـ - القاهرة - دار المعارف .

• الأدب الموجز للولد الصغير - ترجمة وتحقيق: محمد غفراني الغراسلي - القاهرة - بدون تاريخ .

(٩٦ - ٩٩هـ) أسلم "صول" ، ثم إن "مسعدة بن صول" أصبح مولى لـ "خالد بن عبد الله القسري" حينما كان "خالد" والياً على "العراق" كله ، وعلى "خراسان" و"الهند" (١٠٥ - ١٢٠هـ) ، فكان يكتب له "كاتباً عنده" ، ثم أصبح "مسعدة" كاتباً لـ "خالد بن برمك" ربما في أيام وزارته للشفاح والمنصور ، ثم لـ "أبي أيوب المورياني" وزير "أبي جعفر المنصور".
لعل "عمر بن مسعدة" نشأ في "بغداد" ، وأخذ عن علمائها ، وقد برع في الترسل فأصبح يُوقع بين يدي "جعفر بن يحيى البرمكي" في أيام الرشيد.

ولم يدخل "عمر بن مسعدة" إلى ديوان الرسائل حتى توفي "الفضل بن سهل" (٢٠٢ - ٨١٧هـ) ، فكتب "للمأمون" (في مرو) ، ثم جاء مع المأمون إلى "بغداد" (٢٠٤هـ) فأصبح رئيس "ديوان الرسائل" و"ديوان الخاتم" . وتكسب من عمله مالاً جزيلاً قيل : ثمانون مليون درهم.

وكان "عمر بن مسعدة" مقصوداً بمدحاً ، مرض يوماً فعاده "مروان بن أبي حفصة" وهناك (وتعرض "مجاهع" أخو "عمرو بن مسعدة" لـ "حماد بن عجرد" بالهجاء ، وكان "مجاهع" صغيراً ، فتبب "حماد" بـ "أم مجاهع" . فبعث "عمرو" بهدية إلى "حماد" ، واعتذر إليه ، واستكفنه ثم لام أحاه "مجاهعاً" .

ولما غزا "المأمون" بلاد الروم كان "عمرو بن مسعدة" معه ، فأدركته الوفاة في "أدنه" قرب "طرسول" في ربيع الآخر من سنة ٢١٧هـ في الأغلب (٨٣٢م).

كان "عمرو بن مسعدة" صاحب توقيع ورسائل وفصول موجزة . ولكن ليس له كتاب مؤلف في موضوع معين ، وهو فصيح الألفاظ ، سهل التراكيب ، حسن السبك ، كثير الإيجاز مع شئ من الغموض المتعمد الذي تقتضيه عادة اللباقة السياسية ، وكذلك كان يظم الشعر ، ووصف "الفضل ابن سهل" بلاغة "عمر بن مسعدة" فقال : "هو أبلغ الناس ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه طن أنه يكتب مثله ، فإذا رآه بعد غته" .

ومن كلامه : كتب "عمر بن مسعدة" إلى "الحسن بن سهل" :
"أما بعد ، فإنك ممن إذا غرس سقا ، وإذا أنس بنى ، ليستم تشيد أسسه ، ويتجنى

ثمار - عرسه ، وثناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغرسك شن على اليبوس ، فتدارك
بناء ما أسست وسقى ما غرست إن شاء الله .

ولد عمرو بن مسعدة "كلمات جوامع للحكم ، منها :

العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق - الود أعطف من الرحم - عليكم بالإخوان
فإنهم زينة في الرخاء وعُدّة للبلاء^(١) - ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما
أو فضل أحدهما - علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدنى بالكتاب
- ظاهر العتاب خير من باطن الحقد - لا تتعرض لعدوك في دولته ، فإنها إذا زالت كفتك
مئونته - نصح الصديق تأديب ونصح العدو تأليب.

وكتب "عمرو بن مسعدة" إلى "المأمون" رسالة في شأن رجل كان المأمون قد وعده
عدة : "إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من رتبة المطلق بقضاء حاجته ، أو يأذن له
بالانصراف إلى بلده فعّل إن شاء الله"^(٢).

الجاحظ

نشأته وحياته ،

"أبو عثمان عمرو بن بحر" ، ولد بالبصرة . ونشأ بها ، وقد اشتهر بلقبه الدال على تنوع
حذقيه وجحوظهما ، واختلف في السنة التي وُلد فيها . على حين اتفق الرواة على أنه توفي
سنة ٢٥٥هـ ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش
ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل)
والنقرس (الروماتيزم) : "أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف
وأعظمها ست وتسعون سنة .

ويذكر "بروكلمان" السنة التي وُلد فيها ، وأنه وُلد بالبصرة في أوائل سنة ١٥٠هـ

١ - تاريخ الأدب العربي : تأليف/ عمر فروح ص ٢١٦ وما بعدها .

٢ - معجم الأدباء : لياقوت الحموي ١٢٧/١٦ وما بعدها .

• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ١١١/٢ وما بعدها .

• تاريخ بغداد ٣٠٢/١٢ ، ٣٠٣ .

وتوفي في شهر المحرم سنة ٢٥٥هـ^(١)، وهو إنسان طموح قوى العزيمة ، دقيق الملاحظة
مرحف الشعور . مفرط الذكاء^(٢) .

وكان "أبو عثمان" دميم الخلقة ، جاحظ العينين ، ومن ذلك لقبه ، حتى قيل : إن
الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم فاستقدمه إليه ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره
وصرفه بعشرة آلاف درهم ، وكان فيه دُعابة واستخفاف بالعادات المرعبة والآداب الوضعية
ولكنه كان لطيف الروح ، ذكي الفؤاد ، فكه المحاضرة^(٣) .

وكان يتندر على كل شئ حتى على نفسه وشكله ، ويروي عنه أنه قال : "ما أخرجني
إلا امرأة مرت بي إلى صانع فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصانع
فقال : هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت : لا أدري كيف أصوره . فأنت
بك لأصوره على صورتك".

وقد نشأ "الجاحظ" نشأة فقيرة متواضعة ، ومن أخباره أنه كان يبيع الحز والسمك
بسم - أحد أنهار البصرة - ، وكان يشير ذلك إلى أن نشأته كانت فقيرة ، وأنه كان في حاجة
إلى - يكتسب معاشه - ويروي أن أمه ضاقت بابهماكه في الدرس والقراءة ، فطلبت منها
يوماً ضعة ، فحاته بطق مليء بكراريس أودعها البيت ، وقالت له : ليس عدي من
طعم سبى هذه الكراريس . تريد أن تشبه إلى التكسب ، فذهب إلى البائع مفتماً .

ونخيه "قويس بن عمران" أحد رفاقه الأثرياء في الدرس . فسأله : "ما شأنك" فحدثه
تحدث امه ، فأحذه إلى منزله ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ودخل السوق
واشتري الدقيق ، وحمله الحمالون إلى داره . وسأله أمه : من أين لك هذا؟ فقال لها : من
الكراريس التي قدمتها لي . وكان ابن عمران "كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وخطايا
من حلفاء والوزراء .

(١) تاريخ الابل العربي - كارل بروكلمان ١٠٦/٣

(٢) نداء - للحفظ وتصوير المجتمع المعاصر - د/ احمد مصور بغداد ص ٩٩

(٣) تاريخ الابل العربي - احمد حسن الزيات ص ٢٥٧

وكان "الجاحظ" يذهب إلى بعض الكتابيب التي فيها تعليم القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب، وحفظ القرآن الكريم، وبعض الأشعار، ولما شبّ مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها، وكانوا يخاضرون في كل فن، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس، وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شرعية ومن نحو وعلوم لغة، ومن مناقشات ومحاورات بين المتعلمين من كل الفرق، وكان يختلف إلى المرید يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار، وكانت المرید سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ العصر الأموي^(١).

ولم يكن يكتفي بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبعث فيها للقراءة والنظر.

وقد أحاط "الجاحظ" على وجه العموم بجميع معارف عصره، وبرز في دراستها وتفوق على أقرانه في كل فن من فنونها، بدليل أنه كتب في معظم الموضوعات التي شاع فيه التأليف في عصره إن لم يكن فيها كلها، وكتابه: "الحيوان" و"البيان والتبيين" يشهدان له باتساع العلم، وغزارة الاطلاع، وتشعب الثقافة، والقدرة على التدفق والإفاضة في جميع معارف العصر؛ حيث كان ينتقل فيها من فن إلى فن في يسر وسهولة.

وكان من أهم ما شغف به مذهب المعتزلة، ولزم أساتذته في عصره، بادئاً بأبي الهذيل العلاف، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقة.

وكان من أهم من لزمهم "النظام"، وكان لا يبارى في المناظرة وإقحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة.

وقد هدام طول تفكيره في آراء أستاذه (النظام) الاعتزالية وغيره من "المعتزلة" إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت "بالجاحظية" نسبة إليه.

ولما شغل الجاحظ "المؤمنين" بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة طلب من "الجاحظ" الكتابة في هذا الموضوع، وكتب "الجاحظ" فأعجب "المؤمنون" بما كتب إعجاباً

(١) العصر العباسي الثاني: د/ شوقي ضيف.

كبيراً ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد "للجاحظ" ؛ لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة .
ويقال : إن "المأمون" حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع العمل
إلا ثلاثة أيام ، عاد بعدها إلى التأليف والكتابة الأدبية .
وكان "أبو عثمان" يحب العرب ، ويمتاز بالعروية ، وقد أثار في نفسه هذا الحب عقدة
الكرامية للشعوبية ، والتصدي لهم ، ودحض مزاعمهم التي روجوا لها ، وعملوا على
إصافها بالعرب . وقد تنوعت آثار "الجاحظ" الأدبية بين المناظرات ، والرسائل الإخوانية
والمناظرات الأدبية ، والنثر القصصي ، والتأدية . وقد نبغ في فن المناظرات إلى حد كبير ، ولعل
نصيبه لآراء المعترلة ، واعتقاده لها منحه وسائل النجاح في هذا اللون من النثر .
فقد اتخذوا المناظرات وسيلة فعالة للدفاع عن معتقداتهم ، والانتصار لها أمام مذاهب
الجماعات الأخرى ^(١) .

مؤلفاته :

كنه تربي على مائتي كتاب ، وهي كما قال الأستاذ "أبن العميد" : "تعلم العقل أولاً
والأدب ثانياً" . ومنها : "البيان والتبيين" ، و"الحيوان" ، و"المحاسن والأصدا" ، و"السلا" ،
و"ديوان رسائله" . وكان يقال : أربعة لم يلحقوا وله يسبقوا : "أبو حنيفة" في فقهه
و"الحليل" في أدبه ، و"الجاحظ" في تأليفه ، و"أبو تمام" في شعره .

نثره وشعره :

نقل "الجاحظ" الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض ، ونهج للمترسلين
والمتقنين طريقة في الإشاء .

مما شعره : فلا روعة له ، ولا جمال فيه . وقد نزع في نظمه إلى الإتيان لا الابتداء .
ومدحه في الأدب أو طريقتة أنسبه بالطريقة الأولى (طريقة ابن المقفع) في سهولة
تعبارة ، وحرارة . وإنما تناز الحملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسله ، وزيادة الإصا
في اللفظ والخمل ، والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل لدفع سامة القارئ ، وتحليل معنى

(١) النصوص الأدبية لسنة الثامنة - د/ عبد الحميد هلال ص ٥٠

واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية.

وفي سمات وخصائص كتاباته يقول الدكتور / شوقي ضيف :

"إنه لا يعنى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه ، وبالفظة وملاءمتها لمعانيها موضوعاتها وقرائنها كما يعنى سريان روح الدعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية ، إلى نادرة ، إلى بيان سمة لشخص من معاصريه ، إلى قرآن أو حديث ، إلى فكرة من علم من علوم عصره ، إلى عقيدة للمجوس ، إلى ما لا يحصى من المعارف وأحوال المجتمع ، وبذلك يتفرد عن أدباء عصره ؛ إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه ، وكل ما فيه من أخلاق وعادات.

نماذج من نثره :

من كتاب البخلاء : قال "خاقان بن صبيح" : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً ، وإذا هو قد أتانا مسرعة فيها فتيلة في غابة الدقة ، وإذا هو قد ألقى في دهن المسرحة شيئاً من ملح ، وقد علق على عمود المنارة عموداً بخيط ، وقد حر فيه ، حتى صار فيه مكان للرباط . فكان المصباح إذا كاد يطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك . قال : فقلت له : ما بال العود مربوطاً ؟ قال : هذا عود قد تشرب الدهن . فإن ضاع ولم يتنظ ، احتسأ إلى واحد عشان وإذا كان هذا دأباً ودأبه . ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة قال "خاقان" : فيما أنا أتعجب في نفسي . وأسأل الله - جل ذكره - العافية والستر ، إذ دخلت سبيح من أهل "مرو" ، فنظر إلى العود ، فقال : يا أبا فلان ، فررت من شيء ووقع في شبيهه .

أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء ؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى ، وهو عند إسراجك الليلة أعطش ؟ قد كنت أنا جاهلاً متلك ، حتى وفقتي الله إلى ما هو أرشد . - عافاك الله ! - بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة وعلى أن العود والحلال والقصة ربما تعلق بها الشعرة من قطن الفتيلة ، إذا سويناها بها . فتشخص معها . وربما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج . والحديد أملس . وهو مع ذلك غير شاف . قال خاقان : ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضل أهل "مرو"

على أهل خراسان! ^(١).

ومن كتاب "الحيوان" : عجائب الوجود :

ثم أعلم أن الجبل ليس بأدلّ على الله من الحصاة ، ولا الفلّك المشتعل على عالمنا
هذا بأدلّ على الله من بدن الإنسان ، وأنّ صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله ، ولم تفرّق
الأمور في حقائقها ، وإنما افرق المفكرّون فيها.

ومن شعره : الشيخوخة والشباب :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما كنت أيام الشباب ؟
لقد كذبت نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

الخطابة

وهي فن مخاطبة الجماهير ، وتعتمد أول ما تعتمد على الإقناع واستمالة السامعين
والتأثير فيه . فالذي لا يؤثر في عواطف السامعين لا يسمى خطيباً ، وهذا لا يتيسر إلا لمن
حماد الله ملكة البيان ، والتقدرة على المشافهة والارتجال.

وقد كان العباسيون من الخلفاء وأقربائهم من العلويين وأعدائهم من الخوارج وكبار
القادة والولاة ، وذهبوا الناشئين من الفرس والأدباء على جانب رفيع من فصاحة الديهة
وقوة الحجة ، وامتلاك وسائل الإقناع.

والخطابة صروية لكل مجتمع . في سلمه وحربه . فهي أداة الدعوة إلى الرأي
والتوجيه إلى الخير . ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين والزعماء والمصلحين . فهي
ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية ^(٢).

والخطابة تنتعش إذا وجدت دواعيها ، وتوفرت أسبابها ، وفي العصر العباسي وحدثت
عوامل أدت إلى ازدهار فن الخطابة ، من أهمها :

١ - توضيح أصول الإسلام ، وشرح مبادئه للعناصر غير المسلمة التي ضمها المجتمع

(١) تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي - تأليف عبد الوهب ص ٣١٠ وما بعدها

(٢) دراسات في الأدب العربي ص ١٤٢ .

في العصر العباسي : لتدخل هذه العناصر في دين الله ، وطبيعي أن ألوان القول في مثل ذلك تتمثل في الخطب والمحاضرات.

٢ - استخدمت الخطابة في الرد على الذين أثاروا الشبه حول الإسلام والجدل في مسائله ، ومن هنا تكونت مدرسة للرد على هذه الشبه بالحجة البالغة والخطابة الممتعة . وكان هذا المجال معين الخطباء الذي لا ينضب.

٣ - كانت المناوشات على الحدود الإسلامية بين العرب والروم تستدعي دعاة للجهاد في سبيل الله ، ودفع العدو ، ونصرة دين الله ، وتأمين حدود الدولة ، والجهاد دافع من دوافع الخطابة ، وسبب مهم من أسباب نهضتها.

فقد كان لها في صدر هذا العصر مكانة في النفوس . وسلطان على القلوب : لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتعميس الجند ، واستقبال الوفود ، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها شأن رفيع ، مثل : المنصور ، والمهدي ، والرشيد ، والمأمون . فلما استوثق الأمر لبسى العباس ، وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقلة التضال باللسان واللسان . ضعفت الخطابة ، لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي . وحلت الرسائل والمنشورات محلها^(١).

وقد تنوعت الخطابة وتعددت أغراضها ، وأهمها :

١ - الخطابة السياسية :

نشطت الخطابة السياسية منذ مطلع هذا العصر ، واعتمد العباسيون عليها في الدعوة لهم ، والتنكير من الحكم السابق ، ومن ذلك خطبة "أبي العباس السفاح" حين بوع بالخلافة في الكوفة ، وفيها يتحدث عن رحمتهم وقرابتهم للرسول ﷺ تالياً من القرآن الكريم الآيات التي تتيد بأهل البيت . ثم يُعرض بالشيعية المغالية قائلاً : "وزعمت السبئية الغلاة أن غيرنا أحق بالخلافة ، فشحت وجوههم ، ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد

(١) تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ص ٢٤٣ .

ضلاتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر^(١).

٢ - الخطابة الدينية :

حرص خلفاء هذه الدولة على أن يكون شعارهم هو الدين والعمل على إعزازه والجمع بين الولاية والصلاة، فأما الناس في الصلاة الجامعة، يلقون الخطب في الجمع والاعياد، كما عهدوا بالخطابة إلا الكفاءة من العلماء، فنبغ في أواخر هذا العصر طائفة من الأدباء اشتهروا بهذا النوع من الخطابة، كالخطيب البغدادي، والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون، ومَلَكَ العلماء ألسنة الوعَّاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم، "كابن نباتة المصري" وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها، ودرجوا على هذه الحالة المخزية مدة طويلة، حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة.

نموذج من الخطابة الدينية :

خطب المهدي خطبة بارعة قال فيها : "عباد الله ، إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولم تُتركوا سدى، حضنوا إيمانكم بالأمانة. وديكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة. فقد جاء في الحشر أن النبي ﷺ قال : "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له". إنكم سقر محتازون، وأنتم عن قريب تغفلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المعبرة، وإلى الرحمة والتقوى، وإلى الهدى بالإجابة، فإن الله - تعالى - ذكر واجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهدايه للمنيبين.

٣ - الخطابة الحسكية :

وكانت تلقى في الخنود في ميادين الحرب إثارة لروحهم، وتقوية لمعنوياتهم، ونصحاً لهم، وإسادة بقوتهم. وقد تعودها قادة الجيوش يستعينون بها على تشجيعهم على قتال العدو.

(١) محاضرات في الأدب العباسي - د/ علي حاد الحق ص ٢٩ .

وغالباً ما كانت تلك الخطب قصيرة في جملها ، قوية في كلماتها ، تستمد معانيها غالباً من الدين ، وبخصوص القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

ومن الخطب العسكرية خطبة "عبد الله بن طاهر بن الحسن" في قتال الخوارج : "إنكم فئة الله ، المجاهدين عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاه أمره الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين فاستجروا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عديده ، فليكن الصبر معلقكم الذي إليه تلجأون وعدتكم التي بها تستطبرون^(١) .

٤ - الوعظ والإرشاد :

هو لون من النشر يجري على اللسان ، يقوم على الوعظ ، والقصص ، والتذكير بالآخرة ، والتخويف من عقابها . وقد احتاج العصر العباسي لهذا النوع من الخطابة ، بعد أن تفشّت فيه الموبقات ، وانتشر الفساد .

امتثلت بالوعظ والساك المجالس والمساجد ، يسمعونهم الناس فيكون متأثرين بأقوالهم ، ومن اشتهر بالوعظ "عمرو بن عبيد" ، و"صالح بن عبد الجليل" ، و"ابن السماك" واعظ الرشيد . وغيرهم .

الخصائص الفنية للخطابة في العصر العباسي الأول :

تميزت الخطابة في هذا العصر بروعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه ، فكان الخطيب يستعين بآيات من الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول ﷺ والقصص الدينية ، كما تميزت الخطابة بوجه عام بتفرع المعاني وتشعبها ، وغنى الخطباء عنابة واسعة بالأساليب ، والدقة في اختيار اللفظ ، والإحساس المرهف بجمال السك والعبارة ، وأدى بهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع مثل "الفضل بن عيسى الرقاشي" ، وفيه يقول "الحافظ" : "كان ساجعاً في قصصه ، وكان من أخطب الناس" .

(١) العصر العباسي الأول - د/ شوقي ضيف ص ٤٥٦ .

كما امتازت الخطابة غالباً بالسهولة والوضوح، وظهر فيها التأثير المنطقي، فاهتم الخطباء بالإقناع عن طريق الحجج والبراهين، وغلب عليها تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء. كما عتوا بروعة الصورة والأخيلة

الكتابة الفنية وموضوعاتها:

هي الكلام الذي يبدع فيه كاتبه في التعبير، ويسرّو في تأليفه، ويتأنق في اختيار ألفاظه وأساليبه، ويعمل فيه فكره في ترتيب أفكاره الجزئية، وتنظيم أفكاره الكلية، مع الاعتماد على الخيال والتصوير. والمحسّنات البديعية في تحسين الأسلوب وتوضيحه.

وقد نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً كبيراً من ذوى الرأي والخبرة، ومما يدل على أن الكتابة بلغت دروتها في العصر العباسي تلك المنزلة التي تسّمها الكتّاب، فقد تبنّوا المراتب العليا في الدولة، حتى كان منهم الوزراء "كاتب العميد"، و"الصايب"، و"المهلبى". كما كانوا يعصلون على ثروات طائلة من هذه الوظيفة.

وكانت منزلة الكاتب في الدواوين ترتفع على كل منزلة، ومكانة تسمو على كل منزلة، وهو - كما يروى - مستشار الخليفة، وصاحب الرأي في مجلسه.

ويقول الدكتور / شوقي ضيف في رقى الكتابة وأسباب ذلك بعد أن ذكر تغدّ الدواوين وتنوعها بدواوين للخراج، ودواوين للنفقات، ودواوين للحيش، ودواوين للحرب:

"ومدلك بتطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً، فقد توفر عليها مناصب من أصحاب الأقلام. يحدوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة.. ولم يكن نجاح الكاتب هيباً، فقد كان لا بد له من إحسان صناعة الكتابة، وإتقانها، من حيث الوضوح والجمال الفني. والمادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت أهم المثرثات في رقى الكتابة الدبوانية وتطورها^(١).

(١) العصر العباسي الأول - د/ شوقي ضيف ص ٦٥.

موضوعاتها : ويمكن تقسيم الكتابة إلى أنواع ، بحسب موضوعاتها ، فهناك :

١ - الرسائل الديوانية :

وهي واضحة من اسمها ، فهي التي تصدر عن ديوان الخلافة ، ولا تخرج موضوعاتها عن تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة ، والفتوح والجهاد وتدبير السياسة والحكم.. الخ.

٢ - الرسائل الإخوانية :

وهي التي يتبادلها الإخوان والأصدقاء مع بعضهم البعض ، من تهنئة أو تعزية أو عتاب.. الخ.

٣ - الرسائل الأدبية :

وهي التي تعالج فناً من الفنون ، أو علماً من العلوم ، وهي كثيرة ، ومتنوعة ، ومن أهم كتابها : "أبو عثمان الجاحظ" ، ورسائله مشهورة طبقت الأفاق.

نماذج من الكتابة :

كتب الخليفة "المأمون" ، وهو ابن "هارون الرشيد" رسالة من رسائله "الديوانية" وذلك لتقرأ على أهل "خراسان" ، ليكن أول ما تتعهدون به أنفسكم ، وتشابرون عليه من مصالح أدبكم تناصف الحق بيقينكم بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علمتم أن منكم المبرز الفاضل الذي لا يدرك شأوه ، ولا يوازي بلاؤه ويكتب "الجاحظ" رسالة في الحسد يقول فيها : "الحسد - أبفاك الله - داء يهلك الجسد ، وينسد الأود ، علاجه عسير ، وصاحبه ضجر ، وهو باب عامض ، وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يُداوى ، وما بطن فمداويه في عتاء ، الحسد عضيد الكفر ، وحليف الباطل وضد الحق ، وحرب البيان ، وقد ذم الله أهل الكتاب فقال - تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَمُوا وَاصْصَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرٍهُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

فمنه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة ومستج كل وحشة، ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، يكمن في الصدور كمون النار في الحجر، وقد قال بعض الأعراب: "ما رأيت طاملاً أشبه بمظلوم من حاسد، تعس دائم وقلب حاتم، وحزن ملانم".

فن التوقيعات:

فن التوقيعات هو ما يعلق به الخليفة أو الأمير أو الوزير على ما يرد إليه من الرسائل والكتب في شكوى مال، أو طلب نوال، والذي يميّزها هو "الجمع بين الإيجاز، والجمال والقوة"، وقد تكون آية، أو مثلاً، أو بيت شعر.

ومن الأمثلة التي نسوقها لفن التوقيعات ما وقع به الخليفة أبو جعفر المنصور في كتاب أتاه من صاحب الهند، يخبره أن خنذاً شغبوا عليه، وكسروا أفعال بيت المال، فوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بقوله: "لو غنّدت لم يشغبوا، ولو وقّيت لم يهّبوا".

ورفع الخليفة هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: "ذاو حرك لا يتسع" ووقع في بكة جعفر بن يحيى: "أنبتت الطاعة، وحصدته المعصية".

ورفع المأمون في قصة متظلم أبي عيسى أخيه:

﴿ فَإِذَا تَفُتِّخَ فِي السُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢)

ان الكتاب في العصر العباسي الأول ينقسمون إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: الطبقة الأولى من الكتاب في هذا العصر كان إمامها عبد الله بن

المنّيع، وتتميز هذه طريقة ابن المنّيع بتنويع العسارة، وتقليل الحملة، والمراوحة

(١) سورة البقرة - ١٠٩

(٢) راجع: تاريخ الأدب الأموي - للأستاذ/ أحمد حسن الزيات ص ٢٤٥.

بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهادة في السجع. ومن رجال هذه الطبقة: "يعقوب بن داود" و"جعفر بن يحيى"، و"الحسن بن سهل بن هارون" و"الحسن بن وهب".

الطبقة الثانية: وكان إمام هذه الطبقة "عمرو بن بحر" المكنى "أبو عثمان"، والملقب "بالجاحظ"، إمام العربية، وسيد هذه الطبقة. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى، وذلك في سهولة العبارة، وجزالتها، وتمتاز بتقطيع الجمل إلى فقرات كثيرة "مقفأة" أو مرسلة" وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومرج الجدّ بالهزل وذلك لدفع السآمة لدى القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية، ومن رجال هذه الطبقة "أبن قتيبة"، و"البرّد".

الشعر في العصر العباسي الأول:

ازدهار الشعر وأسبابه:

قد اجتمعت للشعر في العصر العباسي الأول عوامل كثر أدت إلى ازدهاره ورقبه ومن أهم هذه العوامل ما يلي :

• أولاً: الامتزاج الشديد بين عناصر المجتمع، مع نشأة جيل يتميز بصفات عقلية جديدة أيضاً.

• ثانياً: الرقي الحضاري الذي عشت في ظلّه الدولة العباسية، ونجم فيه الشعراء، مع التمتع بالطبيعة الغناء المرحّة، والتي كانت تحيط بهم من كلّ المناحي، وتغمرهم من شتى النواحي، كما كانوا ينعمون بمباهج الحياة من حواليتهم من القصور الناحرة والحدايق ذات البهجة الناضرة، والتماثيل الرائعة، وغير ذلك من مظاهر الحضارة التي تثلج الصدر، وتبهج القلب، وتعت على القول، وإنشاد الشعر، وإثراء الحياة الأدبية بوجه عام.

• ثالثاً: تقدير الخلفاء للشعر والأدباء، واحتفاؤهم بالأدب والشعر، واهتمامهم بالمجالس الأدبية. وخاصة مجالس إنشاد الشعر، فقد كان الخلفاء يحتفون بهذه المجالس

الشعرية ، ويستمعون إلى الشعراء وينقدونهم ، وإحازة كثير منهم ، وإغداق الأموال عليهم ، مما أدى إلى إثراء الشعر . وتشجيع الشعراء على القول والإجادة ، ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الخلفاء أو أن كثرة كثرة منهم كان يقرض الشعر ويتدوّد وينقده .

- رابعاً : كثرة الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة .
 - خامساً : الرقي الثقافي الذي اتسعت آفاقه عن طريق التأليف والترجمة .
 - سادساً : رواية الشعر العربي القديم ، حيث كان للغويين دور كبير في حفظ الشعر العربي ، ووضع المقاييس الدقيقة للشعراء^(١) .
- وكان لهذه العوامل أثرها في اتساع خيال الشعراء ، وإثراء معارفهم ، ولعبهم وأفكارهم . ونرى أثر ذلك واضحاً جلياً في فنونهم الأدبية .

المحدثون ومذهبهم في الشعر:

إن المحدثين من الشعراء هم الشعراء الذين نشأوا في العصر العباسي ، وتأثروا بمقتضيات الحضارة المتباينة فيه . والمولّدون منهم وهم الذين نشأوا من أب عربي وأم أعجمية وبعضهم كانت أصولهم كلّها أعجمية ، وقد يطلق لفظ "المولدين" على من يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته من اتساع أفق الخيال ، وذلك راجع إلى المتشاهد ، والمساظر المتباينة في هذه المشاهد ، مما أدى إلى اتساع خيال الشعراء ، وبعثهم على القول والإجادة .

مذهب المحدثين في الشعر والفارق بينهم وبين القدماء:

- هناك اختلاف بين المحدثين في مذهبهم في الشعر وبين القدماء ، وذلك فيما يلي :
- أولاً : تساؤل المحدثون معاني المتقدمين ، وزادوا عليها ، وأساطروا للناس عن مواطن الجمال فيها .
 - ثانياً : المعاني المتكررة . والتي لم تكن تخطر للمتقدمين على بال .

(١) انظر العصر العباسي الأول - للككتور / شوقي صيف ص ١٣٨ وما بعدها بتصرف .

٥ ثالثاً: ومن براعتهم وذكائهم استطاعوا إلباس هذه المعاني أعذب الكلمات، وأيسر العبارات.

٥ رابعاً: إضافة أغراض جديدة إلى الشعر العربي لم تكن موجودة، أو معروفة في الشعر العربي من قبل.

٥ خامساً: اخترعوا وابتكروا واخترعوا الصور الرائعة التي تسر النفس، وتجل عن الوصف.

٥ سادساً: امتازوا ببراعة الاستهلال، وحسن التخلّص والخروج^(١). ومن بديع ابتدائهم قول الشاعر "أبو تمام":

السيف أصدق أنباء من الكتب في حذّه الحدّ بين الجذّ واللّعب
الخصومة الأدبية بين المحدثين والقدماء:

اشتدت الخصومة بين نقاد العرب الأقدمين، وبين الشعراء المحدثين، فرأى بعضهم أن الفضل قد حازه الأقدمون من الشعراء، وأن المحدثين ليسوا شيئاً إلى جانبهم، فلا يروون أشعارهم، ولا يستشهدون بما يقرضون، وكان على رأس هؤلاء "أبو عمرو بن العلاء" و"ابن الأعرابي"، بينما يرى البعض الآخر أن الفضل والنقص موزعان بين المتقدمين والمتأخرين، وأن المتأخر لا يضره تأخره إذا أجاد، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا فقش. فليس التقدم في الزمن مقياساً للجودة. ورغم هذا الاتجاه المتحرر يرى الكثيرون أن المحدثين من الشعراء يجب عليهم أن ينهجوا في بناء القصيدة نهج القدماء.

ولقد نادى "أبو نواس" في القديم غطاً هذا الاتجاه من الشعراء، ودعاهم إلى أن يعيشوا في حاضرهم، ويصنّوا ما يرويه، لا أن يقلدوا السابقين في وصف ما لا يشاهدون وهو في ذلك يؤمن بفعل الزمن وتغير المكان، ومما قاله في ذلك:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم^(٢)

(١) راجع: دراسات في الأدب العباسي - للدكتور عيد قناوى.
(٢) أسس النقد الأئمة عند العرب - أحمد بدوي ص ٤٢ وما بعدها - ط: نهضة مصر.

وعلى الرغم من معارضة أنصار القديس . واستمالهم في دعوتهم ، فإن تيار التطور
الهادر أعرق صيحاتهم في محيطه ، وقذف بهم على شاطئيه . فكأنهم الأعواد اليابسة . وقد
راد في ثقلها طول مكثها في الماء الذي لا تأنسه . ومضى إلى غايته ، والشعر يحذوه ويرسم
خطاه ، وما كان للشعر أن يعتمد والحياة من حوله تتحرك ، لأنه ظلها الذي لا ينفصل عنها
وما دام التطور قد امتد أثره إلى المبادئ السياسية والاجتماعية والثقافية ، فالشعر لا محالة
متطور تلقائياً^(١)

وقد بسط "ابن سنان الحفاجي" قضية الخلاف حول المتقدمين والمحدثين فقال :
ذهب قوم من الرواة أهل اللغة إلى تفضيل أشعار المتقدمين على المحدثين ، واحتلّفوا
في السب : فذهبت طائفة إلى أن العلة مجرد التقدم في الزمن ، وقيل : السبب أن المتقدمين
سبّوا إلى المعاني.

وقيل : إن أشعار المتقدمين كانت من قائلها بالطبع ، ومن غير تكلف والأشعار المحدثه
فيها تكلف . وذهبت طائفة أخرى إلى أن قائل الشعر وتقدم رمانه أو تأخره لا تأثير له . لأن
التقديم كان محدثاً ، والمحدث سيصير قديماً.

وفي المحدثين من هو أشعر من جماعة المتقدمين ، وفي المتقدمين من هو أشعر من
جماعة المحدثين ، وذهب إلى ذلك "الحافظ" ، و"المبرد" ، و"الحريري" ، وهو الصحيح .
وأما من ذهب إلى تفضيل المتقدم بمجرد تقدم رمانه ، فإنه لم يذهب في ذلك إلى علة
غير مجرد الدعوة .

وأما من فضّل أشعار المتقدمين من حيث سبقوا إلى المعاني والألفاظ ، فإنه يقال له :
هذا لو ثبت لدلّ على فضل المتقدمين على المحدثين ، ولم يدلّ على فصل شعر هؤلاء . لأنه
ليس كل من كان أفضل وحب أن يكون شعره أحسن .

وأما من ذهب إلى تفضيل شعر المتقدمين على شعر المحدثين من حيث كانوا له
يتكلفوا أشعارهم ، ونظموا بالطبع ، والمحدثين خلاف ذلك ، فإنه يقال له : ما الدليل على أن

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الذهبي - د/ عبد الرحمن عثمان ص ٣٧ .

أشعار المتقدمين كانت تقع من غير تكلف، فإن قال: بهذا جاءت الروايات عنهم، قيل له: الأمر بخلاف ذلك، فالمراد عن "زهير" أنه عمل سبع سنين، وكان يسميها "الحوليات" ويقول: خير الشعر الحولي المنقح، والرواة يُجمعون على هذا. وإذا فضلوا شعر "زهير" قالوا: كان يختار الألفاظ، ويجتهد في إحكام الصنعة، وهذا كله بمعزل عن الطبع وسهولة النظم^(١).

• طبقات الشعراء المحدثين :

لا نكاد نغضى في القرن الثالث للهجرة حتى يقوم على صناعة الشعر أمشاج من العرب والموالي، الذين كانوا يعيشون في المراكز العقلية الكبرى، وخاصة البصرة والكوفة فكان طبيعياً أن تتطور صورته، وأن تختلف عن صورة الشعر القديم، الذي كان يُستمد من علاقات البادية، وصلاتها الحسية والمعنوية؛ لسبب بسيط: وهو أن من ينظمونه يحيون في المدن، وتؤثر فيهم علاقات وصلات جديدة. بعضها سياسي، وبعضها حضاري واجتماعي، وبعضها عقلي وثقافي^(٢).

فظهر في ميدان الشعر صفوة من الشعراء، غيروا بأدائهم الشعري الخاص بهم وأذاعوا الآراء الحرة، والمعاني المبكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الحديدية، والعقريات الماثورة. ورواة الشعر ونقدته متفقون على أن "شاراً بن برد" زعيم هذه الطبقة - أعنى طبقة المحدثين أو "المولدين"^(٣).

أما "أبو تمام" رأس الطبقة الثانية من المولدين، وقد جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله، ولطف خياله بالاطلاع عليها، واستنبط من ذلك طريقته التي أثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة^(٤).

(١) سر الناصحة لابن سنان الخفاجي تحقيق: عبد المتعال الصعيدي ص ٢٧ وما بعدها بتصرف، مطبعة صبيح ١٩٦٩م.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي - د/ شوقي ضيف ص ٩١.

(٣) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٢٩٧.

(٤) السابق ص ٣٣١.

وفي زعامة "شار" للشعراء المحدثين والحيل التالي له يقول الدكتور / "شوقي صيف" :
 "يجمع الرواة والنقاد على أن 'شار بن برد' رعيم الشعراء المحدثين ، وفي طليعة من أرسوا
 الأسلوب المؤكد الجديد ، وأسلوبه يمتاز بالتصاغة ، والرصانة ، والصفاء ، والرونق ، وتلاه
 جيل من الشعراء توزعوا بين من يؤثر الجزالة والنخامة ، مثل "مسلم بن الوليد" ، ومن يؤثر
 اللبونة والسهولة ، مثل : "أبي العتاهية" ، وكان معاصره "أبو نواس" يحتفظ بكل ما يمكن من
 حذالة في الشعر الرسمي . وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعتمد في الضرب الأخير إلى
 السهولة المفرطة ، على أن الشعراء سرعان من انصرفوا عن طريق "أبي العتاهية" ، مؤثرين
 طريق "شار" وما انتهى إليه هذا الطريق عند "مسلم" من المتانة وقوة البناء ، وخلفه
 "أبو نغم" (١)

• الطبع والصنعة :

لكل شاعر نهج الذي يلائم مزاجه وثقافته في تناول المعنى . والتعبير عنها ، وهو
 نهج مستمد من العاطفة الفنية ، ومن العقل الذي يتحرك على ضوء العاطفة في وعى
 ويقظة . ولن نجد شاعرين يلتقيان على نهج متحد في الشعور بالمعنى والإفصاح عنه . وإنما
 يقع النسب في تقاربهما من حيث الطريقة والمذهب الفني تجاه المعاني وحباستها.
 وحدد الحقيقة الثابتة تحول بيننا وبين تقصى المذاهب الفنية لجميع شعراء العصر
 الذهبي . كما هو واضح ، والذي نستطيعه هنا هو أن نعتبر التقارب فيها إصراراً بين المذهب
 وشبهه ، على ألا يسيما ذلك الفروق الدقيقة التي ينبغي أن نطعن إليها على ما بها من دقة
 وحفاء (٢)

والطبع والصنعة هما أصلان من أصول المذاهب الفنية لشعراء العصر العباسي . ولقد
 رأى القدماء أن خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح هو الطبع ، كما أن التهذيب
 الفني للأسلوب هو الصنعة

(١) العصر العباسي الأول - د/ شوقي صيف ص ١٥٦ : ١٤٧ .

(٢) الآب في عصره الذهبي - د/ عبد الرحمن عثمان ص ٨٢ .

أما المحدثون فيرون أن شعر الطبع هو ما كان صادقاً مؤثراً، وإلا فهو مصنوع متكلف. ونجّمع الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي "بين الرأيين ، حين يرى أن الطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب ، التي تحوى إليه بفنه ، وأدبه وحى الفطرة والطبيعة ، واستجابة لعواطفه ومشاعره ، دون تكلف وتعب في الصوغ ، واستجداء لترف الأسلوب والصناعة.

والصنعة : هي إحساس الشاعر أو الأديب بأثار الجمال الفني ، وترف الأداء ، وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفني بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها في شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال^(١).

وفي العصر العباسي قصّد الشعراء المحدثون ، وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية ، وفي ظلال الامتزاج الذي حدث بين العرب والأمم الأخرى - فصدوا إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن ، وجمال الصنعة ، وسحر الأداء من استعارة ، وتشبيه ، وجناس وطباق ومقابلة ، وحسن تعليل ، وسوى هذه الألوان ، على أن هذه الصفة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة ، وتهذياً أدبياً واسعاً للشعر ، ومذهباً جديداً مؤثراً إلا على أيدي المحدثين عامة ، وعلى أيدي "مسلم بن الوليد" و"أبي تمام" على وجه الخصوص.

وحقاً كان "مسلم" زعيم التصنيع في عصره ، فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه ، فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر ، وإنما تعبر عن ألوان. وأما "أبو تمام" فإن "ابن رشيق" يقول عنه وعن تلميذه "البحري" :

"فكانا يطلبان الصنعة ، ويولعان بها ، فأما "حبيب" فيذهب إلى خشونة اللفظ ، وما يملأ الأسماع منع ، مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً. يأتي للأشياء من بعد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة. وأما "البحري" فكان أملح الناس صنعة ، وأحسن مذهباً في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة ، مع إحكام الصنعة ، وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة

(١) دراسات في الأدب العباسي ص ٦٢ : ٦٣ .

ولا مستقّة^(١).

ويقول في "ابن المعتز": وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنعاً من "عبد الله بن المعتز"، فإن صنعتته حقيقة لصنعة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للتفسير بدقائق الشعر وقد انتهى علم البديع والصنعة إلى "ابن المعتز"، وختم به وإن كان مذهب الصنعة قد استمر منهجاً لكثير من الشعراء^(٢).

• خصائص شعر المحدثين :

قال أبو الفتح عثمان بن جنى: "المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ"، والذي ذكره "ابن جنى" صحيح يمين؛ لأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الدس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمضروا الأمصار، وحصروا الحواصر، وتأنقوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان عافية ما دلتهم عليه بدهاء العنول من فصل التشبيه وغيره^(٣).

ولا شك أن الشعر يتطور دائماً تبعاً لتطور الحياة من حوله، وشعر المحدثين أو المولدين وأهل الحضرة الذي ينساب من أفواههم رقيق الحاشية، غذب العلم، تخمّله البرية، وتلمح في سجه ومضات الثقافة الأخيية. ويجري في مائه أنس اختصاره وعمق الخيل خلد

ويجئ على رأس هذه الطائفة "بشار بن برد"، و"أبو نواس"، و"مسلم بن الوليد" و"أبو تمام" ومدرسته، وغيرهم^(٤).

والشعراء المولدون - وإن كانت بعض أشعارهم فيها حلاقة ومجون - فإنهم دأعوا الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة. والأوصاف الدقيقة. والمداهب الجديدة

(١) العدة في محاسن الشعر وأدائه ونقده - لابن رشيق ١٣٠/١

(٢) درامات في الأدب العباسي - عبد قنات ص ٦٨. تاريخ الأدب في العصر العباسي - د/ محمد شذ

المعجم حقاقي.

(٣) العدة - لابن رشيق ٢٣٦/٢

(٤) درامات في تاريخ الأدب العربي - د/ عبد الرحمن عثمان ص ٣٦.

والمعبريات الماثورة من أمثال "بشار" و"أبي نواس" و"مسلم بن الوليد"^(١)

يمكن إبراز أهم الخصائص التي تُعَيِّن شعر المحدثين فيما يأتي :

أولاً: من ناحية المعاني والأخيلة:

كان طبيعياً في ذلك العصر الذي شاع فيه العلم والفلسفة والثقافة أن ينفصب خيال الشعراء ، وتعمق معانيهم ، فظهر الترتيب بين عناصر القصيدة وبين المعاني الجزئية لكل عنصر على نحو لم يُعرف من قبل ، ووضح في شعر هذا العصر حُسن التصوير وروعة الخيال ، وجُمِلت التشبيهات والاستعارات.

فلقد تبسرت العلوم ، وأصبحت كلاً مباحاً لمحبي الثقافة ، وعشاق العلياء ، وأصحاب الهمم العلية ، والنفوس الطموحة في هذا العصر ، فانفتحت أمامها العقول ، ونمت الأفكار واتسع الخيال ، كما أن طبيعة البلاد الخصبة قد هيأت للحضارة أن تزدهر ، وأن تأتي بأطيب الثمرات ، فهل يستعصى بعد ذلك على العقول أن تأتي بالأخيلة البديعة ، وتفوص لتلتقط الدور من المعاني^(٢) .

ولثقافة الأدب دور بارز في شعره وشاعريته ، فازدهار الأدب مرتبط إلى حد كبير بازدهار الثقافة ، ودور الثقافة يبدو واضحاً في دقة الأفكار ، وتوليد المعاني بالإضافة إلى دورها البارز في الألفاظ والأساليب والصور .

وإن من يتصفح ديوان الشعر العباسي كله يبهره ما يجده من عميق المعاني ، ودقيق الأفكار ، ويشعر فيه بأثر الثقافات المتعددة ، والحضارات المتزجة ، فيلاحظ أثر الفلسفة اليونانية ، وروح الحكمة الهندية ، ورحيق الثقافة الإسلامية ، وعروق الحضارة الفارسية فلولا المنطق اليوناني ما كانت حكمة "أبي تمام" أو دقة "ابن الرومي" ، ولولا الثقافة الدنيبة ما كان شعراء الزهد والتصوف . ولولا مباحث الفلاسفة ما كانت عقلية "أبي تمام"^(٣) ولولا البحث في الأمور العقديّة ما كانت ردود العلماء القوية المنحمة للملحدين وللمتزدين

(١) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٢٩٧ .

(٢) محاضرات في تاريخ الأدب العباسي ص ٩ بتصرف .

(٣) دارسات في الأدب العباسي - د/ عيد قنّاي ص ٢٩ بتصرف .

لقد اتسعت المعاني أمام الشاعر اتساعاً كبيراً، بتأثير رقى الحياة العقلية والاجتماعية وتعدد ألوان الحضارة، وكثرة مطاهر الطبيعة، ورفى المعرفة، وأنماط التعليم، فنصح خيال الشعراء، وقوى تخليقهم في أودية الشعر وأخيلته. وحالوا في كل مجال، انظر إلى قول "إبراهيم بن إسحاق الموصلي":

أفكر في قلبي بأي عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميثاق والقطر بالبحر

ومن عميق المعاني والأفكار التي تدل على ثقافة الشاعر، وعلمه بالحجج والبراهين العقلية، وكيفية الإقناع ما نراه في مدح "أبي تمام" لـ "أحمد بن المعنصم" في قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
وكان "الكندي" حاضراً فقال: الأمير أكبر من شئت بهم. فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروراً في الندى والبأس
تالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وكذلك ما نراه في قول "ابن الرومي" من دقة في التعبير والمعنى:

وإذا امرؤ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورد لما أطال رشاءه

ومن المعاني الفلسفية ما نلمح من حكم كثيرة ذاعت وشاعت على ألسنة الكثير من الشعراء، فمن ذلك قول "بشار":

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاظة فإن الخوافي قوة للقوادم

وبعلل "ابن رشيق" لاتساع المعاني في هذا العصر بقوله: "إن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمعمروا الأمصار

وحضروا الخواضر، وتأنقوا في الملابس والمطاعم، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه
بدهاة العقول من فضل التشبيه وغيره.

ومن بديع "أبي تمام" قوله :

فأسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلام سلمى ومهما أوردق السلم

من أروع التشبيهات قول "بشار":

ودعجاء المحاجر من مق كأن حديثها تمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تنبت كأن عظامها من خيزران

ومن جميل التشبيهات قول "أبي تمام":

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

ومن تشبيهات "أبي نواس" خاصة قوله:

في كؤوس كأنهن نجوم دائرات بروحها أيدينا

طالعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن فنيانا

ثانياً: من ناحية الألفاظ والأصناف:

لقد كان للتطور الذي شهده العصر العباسي الأول كبير الأثر في "ألفاظ الشعر
وأصاليه"، حيث إن الألفاظ التي كانت متعلقة بحياة العرب السالفة انقرضت، أو كادت ولا
نجد ذكرها للبادية والصحراء والرمال والقفار، والأثافي، والبيداء، والتوق والقر الوحشي
والخمر الوحشية، فقد تركوا كل هذا، وشاعت في ألسنهم ألفاظ الدور والقصور
والحدائق والخمر، والقُدود، والحدود، والأباريق، والقيان. فهذا التطور الذي حدث
في المجتمع أشأ جراً حصارياً جديداً قضى على ألفاظ، كما أنه استحدث ألفاظاً أخرى

ومن دلائل التجديد "النقد البياني" الذي جعل أساس البلاغة في الألفاظ السهلة والحلاوة ، والحزالة (١)

ولم يقف التطور لدى الألفاظ فحسب ، بل سرى في استخدام الأساليب البلاغية مثل : "التشبيه ، والتمثيل ، والكتابة ، والمجاز ، وتغليب الكلام بالمحسنات اللفظية والمعنوية" كما شغفوا باستعمال ألفاظ القرآن الكريم ، ومحاكاة أساليبه ، واقتباس آياته ، واقتباس ألفاظ الحديث الشريف ، والاستشهاد بها ، مما عاد على الأسلوب بالروعة والجمال (٢) .

كما شاع "الأسلوب المنطقي" ، وهو الأسلوب الذي يلتزم المرء بالحديث فيه ، والمعنى بالكلام معه على طريقة أهل المنطق ، وهو أخذ نتيجة من مقدمات توحى بها ، وتعلن عنها وتجبر إليها على شكل "العلة والمعلول" والسبب والمسبب (٣) .

ومن ذلك قول أبي تمام :

وطول مقام المرء في الحي مخلوق
فأغترب نتجـد
فإني رأيت الشمس زبدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقول البحري :

دنوت تواضعاً وعلوت ندراً
فما نال انخفاض وارنفاع
كذلك الشمس تبعد أن تسمى
ويدنو الضوء منها والشعاع
وقوله أيضاً :

ذاب على أيدي العفاء وشائع
عن كل ند في الندى وضرب
كاليدر أفرط في العلو وضوؤه
للعصبة السارين جد قريب
كما لحا الأدباء إلى النكاح في أساليبهم ، حتى تلقى رواجاً وإقبالاً عليها من القراء

(١) تراست في الأدب العربي - د/ عيد قناوي ص ٣٢ بتصرف

(٢) محاضرات في الأدب العباسي

(٣) دراسات في الأدب العباسي ص ٣٨ .

والمندوفين، وقدوتهم في ذلك شيخ الأدباء "الجاحظ" في مؤلفاته التي تغصّ بهذه النكات والفكاهات، و"ابن الرومي" في أشعاره، ومنها قوله في مغنية:

غنت فمس القلب كل كرب واستوجبت منا اليم الضرب

كما لجأ بعض شعراء العصر إلى الأسلوب الرمزي الذي دعت الحاجة إلى استخدامه، ولقد عنى الشعراء المحدثون أو المولدون بالصورة عناية كبيرة، فقد دعوا إلى جدة الصورة الشعرية. وازدياد طاقتها الإيحائية، وقدرتها على التعبير عن روح العصر ولقد كان لـ "أبي نواس" في ذلك أثر لا يُنكر؛ إذ تميّز شعره بروعة الصورة النابعة من الملاحظة الدقيقة، والخيال الشعري غير المحدود، مع وضوح وبساطة في تناول، وقد لفت كل هذا أنظار المستشرقين إلى شعره، بالإضافة إلى ثورته على التقاليد الشعرية وبساطة أسلوبه.

ويتصل بتطور الصورة الشعرية تطور مصادرها، وغلبة الطابع العقلية والنمط الاستدلالي عليها، وربما كان هذا أثراً من آثار الثقافة الإسلامية أولاً، والثقافات الوافدة ثانياً، فالثقافة الإسلامية قد أمدت الشعراء بزيادة لا ينفد من صور الترغيب في نعيم الآخرة والترهيب من عذابها، كما أن الثقافات الوافدة - وخاصة الثقافة اليونانية - قد أعانتهم على تشكيل هذه الصور تشكيلاً منطقياً، ترتبط فيه المقدمات بالنتائج، وتقرن فيه الدعوى بالدليل، إليك - على سبيل المثال - مما يقوله "أبو العتاهية" في صروف الدهر:

أحمد الله على كل حال	إنما الدنيا كفى ظلال
إنما الدنيا مناخ لركب	يسرع الحث بسرع الزجال
رب مغتر بها قد رأينا	نعشه فوق رقاب الرجال
من رأى الدنيا بعين بصير	لم تكد تخطر منه ببال
إنما المسكين حقاً يقيناً	من غدى يأمن صرف الليالي

فالحياة التي كفى الطلال في رواها . والدنيا التي لا تعدو كونها مقاماً مؤقتاً لركب
يبحثون المطايا إلى غايتهم ، والعش تحملهم رقاب الرجال إلى المثوى الأخير .. كل هذه الصور
تعكس بعض نفع البيان القرآني الكريم ، وبخاصة في آيات المقارنة بين دار الفناء ودار البقاء ،
كما أن الخلو من هذه الصور إلى الحث على الزهد في الدنيا ، والتذكير بغدر الليالي
لا يخلو من سمة برهانية واضحة^(١).

ملاحظات التجديد في الموسيقى الشعرية :

إن المتأمل في الشعر العربي في عهد "بني أمية" يعلم ما أثر به الفناء المستحدث حينذاك
في موسيقى الشعر وألحانه ، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة في الغزل ، وأخذ الشعراء
يصنفون موسيقاهم ، حتى غدت تلك المقطوعات أنغاماً خالصة ، نغمة حلوة بجانب
نغمة حلوة ، وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى
النظم في الأوزان البسيطة الخفيفة ، فإن ألموا بالأولى جزءاً منها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون
والمغنيات من أنغام مبهورة أو مهموسة ، ومن أجل ذلك أكثروا من الخروق أو عبارة أخرى
من الزخافات ، إكثاراً نفذ منه "الوليد بن يزيد" إلى استكشاف وزن "المجث" ، وصنع بعض
المقطوعات فيه ، وانتقلت موضة هذا الفناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة ، حتى إذا
كان العصر العباسي بلغت في مدن العراق كل مكان ينتظر لها من وحدة وقوة^(٢).

وإذا كانت الحوارية ومجالس الطرب قد أثرت في مضامين الشعر العباسي ، فلقد كان
تأثيرها في موسيقاه أكبر وأعمق ، ولعل أهم ما يلاحظ في هذه الصدد أن الشعراء بدأوا
يكثرون من الالتكاء على الأوزان القصيرة ، والتنصيلات السهلة التي تطرأ عليها أنواع
مختلفة من الزخافات والعلل ، والتحريرات العديدة ، حتى لينتهي بهم هذا التحريف إلى
استحداث أوزان جديدة ، منها المنتصب والمضارع اللذان سجلتهما الخليل ، وليس لهما
أصل في الشعر القديم . وليس صدفة أن استحدث المجث في أخريات العصر الأموي - كما

(١) في الشعر العباسي - د/ محمد فتوح ص ٥١ - ٥٢

(٢) دراسات في الأدب العباسي ص ٥٥ .

ذكرنا - ثم كذلك في أحضان مجالس الغناء والطرب، وقد أكثر منه العباسيون؛ إذ نجده كثيراً
 عن "بشار"، و"مطيع بن ياس"، و"أبي العتاهية"، و"أبي نواس" وأضرابهم.
 وأما "المقتضب" فهو - كما ذكرنا - عباسي، ورغم عدم رواجه واتساع استخدامه نجد له
 نماذج في مثل هذه الأبيات التي يعدّها "ابن خلكان" أنها كانت أوّل شعر يقوله "أبو نواس"
 في صباه:

حامل الهوى تعب	يسـتـخـفـه الطـرب
إن بكى يحقّ له	ليس ما به لعب
نضـحـكـين لاهـيـة	والمحبب ينتحب
تعجبين من سقمي	صحتي هي العجب
كلما انقضى سبب	منك عاد لي سبب

أما المضارع، وهو صور المقتضب في نشأته العباسية فمن أمثله: قول "عبد بن
 وهب":

لقد قلت حين قربت العيس

قفوا فأريعوا قلبيلا

فلم يريعوا وساروا

وثمة وزن ثالث عباسي المنشأ والاختراع، وهو "المتدارك"، وفيه صاغ "أبو العتاهية"

قوله

هم القاضي بيت يطرب	قال القاضي لما طولب
ما في الدنيا إلا مذنب	هذا عذر القاضي وأقلب

ويظهر غرام "أبي العتاهية" بالتجديد في أوران الشعر من هذه الحقيقة، التي ترويب

كتب الأدب، وهي أن له أشعاراً لا تدخل في العروض، وهي حقيقة يؤكددها "ابن قتيبة" في "الشعر والشعراء"، وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه، وربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب، يُبَدَّ أن المسألة لم تكن سهولة الشعر وسرعته كما يحسب "ابن قتيبة"، بل كانت - على حد تعبير الدكتور / شوقي ضيف - هذا الغناء العباسي وما يستلزمه من أوزان وأنغام جديدة (١).

ولم يقتصر أثر الغناء في الشعر العباسي على اختراع أوزان جديدة تناسب مخففتها وسهولتها أصوات النغم والغناء، ولكن هذه الأوزان المخترعة لم تلق رواجاً كبيراً بين المتأدبين والشعراء، إن الذي يحب التنبية إليه هو تلك الأوزان القصيرة المتجزأة من أوزان طويلة قديمة العهد في الشعر العربي، وقد عاشت هذه الأوزان، وكثر استخدامها لدرجة أنك لا تكاد تمضي بضعة صفحات في ديوان أحدهم، حتى تجد نماذج هذه الأوزان القصار المجزوءة، ومن هذا القبيل تلك الأبيات من "مجزوء البسيط" لـ "أبي نواس"، وهي مثال يشير إلى كثير من قصائده:

يا من لعين سربة تفعل فعل الطربة
ومن لنفس في الهوى تدور دور العرببة
أنحلتني الحب فأصبحت شبيه القصبة
لا خير في الصب إذا كان غليظ الرقبة (٢)

ومهما يكن من أمر فإن طاهرة تقصير الأوزان لم تكن جديدة في العصر العباسي ولكن الجديد هو إكثار الشعراء من استخدام الأوزان المجزوءة، ومبالغتهم في اختزالها إلى حد أن صار البيت أحياناً من تفعيلتين، كل تفعيلة تكون شطرة، على أننا لا نغفل هذا اللون سوى نادج ضئيلة للغاية، منها قصيدة في مدح "الهادي"، التي يقول فيها:

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٠ وما بعده.

(٢) في الشعر العباسي ص ١٨ : ٢٠.

وعين سربة - سائلة - والقصبة - كل نبات ذي أنابيب - غليظ الرقبة: كثافة عن العناء والغلظة.

موسى المطر — غيث بك —
ثم انهم — ألى الم —

والضغيلة من وزن "مستعلن"، فالوزن إذن يمكن أن يسمى بـ "مجزوء مجزوء الرجز"^(١).

التجديد في القوافي:

ظل الالتزام بالقافية الموحدة هو المبدأ العام السائد، إلا من محاولات محدودة لدى بعض الشعراء في التخفيف من حدة تكرارها الصوتي — أي تكرار حرف الروي فيها — فكانت القصائد المزدوجة، التي يقني فيها كل بيت تقفية مستقلة، تبرز في نهاية عجزه ونهاية صدره على السواء، ولكن دون التزام بتكرارها في سائر أبيات القصيدة، وكان من هذه المحاولات كذلك كتابة "المخمسات"، وفيها تقسم القصيدة إلى وحدات، كل وحدة من خمس شطرات، ولكل وحدة قافية مستقلة تتكرر في نهاية شطراتها الخمس، دون التزام بها في الوحدات الأخرى.

وبما كانت المحاولة الطريفة حقاً لكسر حدة القافية — على الرغم من الإبقاء عليها — هي تلك التي تظالعنا في أشعار "أبي العتاهية"، و"ابن المعتز"^(٢).
فمن رباعيات "أبي العتاهية" في الزهد:

الموت بين الخلق مشترك لا سوقة تبقى ولا ملك
ما ضر أصحاب القليل وما أغنى ذوى الأملك ما ملكوا (٣)

(١) في الشعر العباسي الروية والسن — د/ عز الدين إسماعيل ص ٤٨ وما بعدها.

(٢) ينظر: في الشعر العباسي الروية والسن ص ٥٨.

(٣) دراسات في الأنت العباسي ص ٥٩.

أغراض الشعر العباسي (القديم ، والجديدة) وأشهر شعرائها :

دونت العلوم المختلفة : من شرعية ، ولسانية ، وعقلية - وترجم غيرها من اللغات الأجنبية ، وظهرت الردود القوية المفجعة للشعوبيين والمتزندق وأصحاب الآراء المنحرفة ، ودعاة الانحلال والخلاعة والشرب والمجون ، وبجانب هذا انتشرت دعوات الوعظ والإرشاد عن طريق التهديد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، كما ظهرت أقلام أحسنت وصف الطبيعة بجمالها وحسنها ، والحضارة بقصورها وما حوت من أثاث ، ورياض ورسوم ، وحدائق ، ورياض ، وأنواع اللعب إلى غير ذلك من آيات الحضارة ، ومباهج الحياة.

ومما سبق يتبين لنا ما أضافته الحضارة العباسية من أغراض على أغراض الشعر الموروثة ، فلم يكن الشعراء قبل العصر العباسي يعرفون وصف البرك ، والقصور والحدائق ، والرياض ، وغير ذلك مما أنشأته الحضارة العباسية ، كما أنهم لم يعرفوا شعر الفلسفة ، ولا شعر الزهد ، ولا الشعر الصوفي . ولا المقطوعات التعليمية ، ولا الشعر الماجن ، كالغزل بالمذكر - كما ستعرف بالتفصيل فيما يأتي - كما تطورت الأغراض الموروثة إلى ما يتفق وروح العصر وثقافته.

فهناك من الأغراض ما قلَّ حديث الشعراء فيه ، مثل : الشعر السياسي ، وبخاصة بعدما ضعف شأن الأحزاب السياسية ، وكالغزل العذري الذي لم يبق له مجال متسع إلا قليلاً في هذه البيئة ، وهناك أغراض موروثة ثمت وتطورت وازدهرت ، كالغزل العادي الذي أصبح صناعة متكلفة فلما يصدق في وصف العواطف والانفعالات ، وأضافوا عليه غزلاً جديداً كان اسدى تصوير لنفوسهم وبيئتهم.

وكالتهجاء الذي زاد قبحاً ، وعظم حظه من الإقذاع والفحش ، وكالمدح الذي كثرت فيه المبالغة ، واشتد منه الإسراف ، ونزل به الشعراء حتى اتخذوه وسيلة للكسب

في غير تعفف ، ولا كرامة ولا حياة .

وأشد الفنون الشعرية ، وأكثرها غمواً في هذه العصر : المجون ، ووصف الخمر ، وقد دعا إلى ثبو هذا الفن ، وتهالك الناس عليه ما حدث من فساد الأخلاق ، واختلال الروابط الاجتماعية ، وتسلبت الإماء على الحياة المنزلية .

ومن الأغراض التي أصابها التطور أيضاً : فن الوصف ، حيث غيروا في موضوع هذا الوصف - كما سبق - بسبب الحضارة التي غرقت فيها الدولة في هذا العصر .

ومن هذه الأغراض التي تطورت أيضاً : فن الرثاء ، فقد خرج الشعراء فيه عن المألوف من البكاء على الميت ، والتفجع عليه ، وإبداء الألم الشديد لفقده أو التأيين - إلى الرثاء الذي يُكثر فيه الشاعر من الحديث عن الحياة والموت ، وفلسفة النقاء والبقاء وصروف الزمن (١) .

أولاً : الأغراض التقليدية :

١ - المدح : أما المدح فقد تبوأ المكان الأعظم في الشعر العربي كله وفي العصر العباسي خاصة ، فلقد كان هذا العصر عصر فتن وثورات داخلية وحروب خارجية . ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى قصيدة المديح ؛ لتقوم مقام الصحافة في تسجيل الأحداث الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، وقد كانت المدائح في الماضي - على جودتها - تتوخى السهولة في اللفظ والمعنى ، من مثل : بيت "زهير" المشهور :

إن تلقى يوماً على علاته هرمأ تلقى السماحة منه والنسدى خلقأ
وكان المديح ذا مكانة ممتازة في الشعر الجاهلي ، وكان الملوك يُفقدون على الشعراء الهبات ، ويجزلون لهم العطاء مقابل هذه المدائح ، وقصص "الناطقة" مع "النعمان" ، و"زهير" مع "هزرم بن سنان" والحارث بن عوف مشهورة

(١) محاضرات في تاريخ الأدب العباسي - د/ علي جاد الحق ص ٢١ : ٢٢ بتصرف .

لا تحتاج إلى تكرار.

ولم يكن للمدح ذلك الشأن الخطير في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، فلم يأنهوا بالمدح أو يثيوا عليه، أما في العصر الأموي فقد أُنسجت البلاد الإسلامية، وتعمّشت نبتاً ما، وأصبح قصر الخليفة بدمشق له شعراؤه الذين ظهروا في صورة واضحة وقوية، ومن أشهر الصفات التي كان يضيفها الشعراء على مدوحهم: الكرم والشجاعة.

ولم يعد شاعر المدح في العصر العباسي الأول يقتصر على إلقاء التعريض يدي المدح. بل تعداه إلى التراسل بالشعر، وأخذوا يتفننون في المدح، ويبدعون في اختراع المعاني والتصرف فيها، وظهر أثر الثقافة في شعر المديح عندهم، كما ظهرت المبالغات في مثل قول "أبي نواس" في "الرشيد":

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
ولتخافك النطف التي لم تخلق
وقول "البحتري" في "التوكل":

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
في وسعه لسعى إليك المنبر
وقول "أبي دلالة" في "المنصور":

لو كان بعد فوق الثمر من كرم
قوم، لقليل: اقعدوا يا آل عباس
وقول "أبي تمام" في "المعتصم":

حنيفة الله حازى الله سعيك عن
جراثيمة الدين والإسلام والحب
بصرت بالراحة العظمى فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

وكانت تبدأ قصيدة المدح بالأطلال، ثم وصف الراحلة والرحلة، كما كانت في العصور السابقة عند قليل من الشعراء، حتى كثرت موجة المحون، فجعلتهم إلى وصف حمر بدلاً من الأطلال، كما وجدنا "بشاراً"، و"مسلم بن الوليد"، و"أبي نواس" (١).

وحاول بعضهم أن يترك الحديث عن الأطلال المنهجية إلى قصور الحاضر المنوسة ويعتبه

(١) دراسات في تاريخ الأدب العباسي ص ٥٣ : ٥٥ يقتصر .

نحوك عن وصف الصحراء ومساكنها ونعموها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها.

٢ - الهجاء : وهو ذكر المثالب ، ونفي الفضائل بأسلوب تهكمي ، وقد كان في الجاهلية أقرب إلى النهج السوي ؛ حيث كان يقصد به الخط من قبيلة أو عشيرة ، وقلما يقصد به تحقير فرد بعينه ، وتحول في صدر الإسلام إلى الرمي بالكفر والإعراض عن الذكر في عصر "بني أمية" انقلب إلى سب فاحش ، وإقذاع مِر على يد الفحول : "جرير" ، و"الفرزدق" ، و"الأخطل" - ثالث فن النقائض.

ولما جاء العصر العباسي تطورت معالم الحياة ، ولم يعد أساسها العصبية القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي ، ولكن الهجاء لم يضعف ، فقد انتشرت في المجتمع الفاسد والفجور ، وضعف الوازع الديني ، وقد اتجه الهجاء إلى السخرية والتهكم ، وسلط الشعراء أقوالهم على البخلاء ، وتناولوا الأمراض الاجتماعية التي تفشت في المجتمع ؛ للتفجير منها :

- ومن ذلك قول "أبي نواس" يهجو "الفضل" :

خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعنا
إنني أحذركم من خبر صاحبنا فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعنا

- وقال "ابن الرومي" يهجو "عذرة" المغنية :

شاهدت في بعض ما شاهدت مسمعة كأن يومها يومان في يوم
نظل نلقى على صم مجلسها قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم
لها غناء يثيب الله سامعه ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم

وقول "حماد عجرد" :

وأعمى يشبه القرد إذا عمى القرد
وقول "ابن الرومي" :

فصرت أخادعه وطال قذاله كأنه متأهب أن يصفا

وكانما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا
وهذا الهجاء - على ما ترى فيه من مخالقات تاباها الروح الإسلامية - جديد أمله
الحضارة، فقد أضاف الشاعر إلى قذارة الجسد قذارة الخلق.

٢ - الغزل : ويقال له "النسيب"، وهو نظم الشعر في وصف النساء، والتودد إليهن
أو وصف حالة العشق وما إلى ذلك، وهو من أهم أغراض الشعر في كل عصر، فقد
درج الغزل الجاهلي على وصف جمال المرأة، واستحال في الإسلام إلى وصف
صداها وهجرها، والشكوى منها كما ترى عند العذريين.
وفي العصر العباسي ابتعد كثيراً عما كان عليه فيما مضى، فالعصر عصر مفاتن
ومفاسد، وحواري ورقص، وموسيقى وغناء، فاندفع الناس إلى الفساد الخلقي، والعبث
واللهو. وذاعت أحاديث العشق والصبوة، ففتحت أبواب الغزل الإباحي الذي يدفع إليه
الجشع الجسدي، والذي لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان، وهذا الغزل لم يعرفه العرب
فيما مضى، نعم عرفوا الغزل الصريح، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين من الخهر
بالفسوق.

٤ - الوصف : وصف العرب كل ما وقعت عليه عيونهم، من حيوان، وطير، وسباع
وأوساد، ووحوش، وختاش الأرض، ووصفوا أيضاً السماء، وشمسها
وكواكبها، وبروقها، وأمطارها، ووصفوا الديار والأطلال، ووصفوا جمال
الإنسان وأخلاقه، وطباعه، وفي العصر الإسلامي اتجهوا إلى وصف الأعمال
الإسلامية في السلم والحرب، والفتوح والمغازي، كما اتجه في العصر الأموي
إلى وصف التعمير الخارجية، والمعارك الخارجية، ومظاهر الترف النسبي.
ثم في العصر العباسي فإن العنقود قد خُطت خطوات واسعة بسبب الثقافات
العميقة، والآفاق الواسعة، فوصفوا الرياض، والحدائق، والساتين، ووصفوا أدوات
الزينة، وأدوات اللعب، وأدوات الشرب.

يقول "ابن المعتز" في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمول من عنبر
ويقول "أبو تمام" في وصف الخمر:

يخفي الزجاجة لونها فكانها في الكف قائمة بغير إناء
٥ - الرثاء : في الشعر العربي في جميع عصوره مرات تُعدّ من أجلّ وأفخم ما في الأدب
العربي، ويروى الرواة أن بعض العرب سُئل: ما بال أفضل أشعاركم الرثاء؟!
فأجاب: لأننا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة لا تكُف
فيها.

وكان الرثاء في الجاهلية يقوم على ذكر المناقب، واستعظام المصيبة في الميت، وضرب
الأمثال بفناء الملوك والممالك. وهذا أمر طبيعي، ولما جاء الإسلام كانت الأسوة بالرسول
ﷺ وخلفائه الراشدين والأنبياء السابقين، واستمر على هذه الحال حتى العصر العباسي
فنشط نشاطاً كبيراً، إذ لم يمت خليفة أو وزير ولا قائد إلا أثنوه تأييداً رائعاً.

وقد صوّروا في القوادر بطولاتهم، ومحنة الأمة والجيش الإسلامية في استشهادهم
وخير ما يمثل ذلك مرثي "أبي تمام" في "محمد بن حميد الطوسي"، ومنها:

توفيت الأمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر
وما كان إلا مال من قل حاله وذخرا لمن أصى وليس له خسر
ومن طريف ما يروى من رثاء هذا العصر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر
وأتخذ الرثاء في العصر العباسي اتجاهات عدّة :

١ - البكاء والحزن الشديد على الفقيه، والتفجع عليه، كنول "مسلم بن الوليد" في رثاء
زوجته :

بكاء وكأس كيف ينفقان سيلاهما في القلب مختلفان

٢ - التأيين : أي مدح الشخص بعد موته، والثناء عليه، كتأين

"محمد بن حميد الطوسي".

- ٣ - التعزية : وهذا اللون من الرثاء يكون عادة جزءاً من مرثية تشتمل على عدة نواح
٤ - المراثي الحكمية : وهى التي يكثر فيها الشاعر من التحدث عن الحياة والموت
وفلسفة الفناء والبقاء ، وصرف الزمن.

أما عن الأغراض المستحدثة : فالغزل بالمذكر ، والمجون ، والزهد ، والشعر الفلسفي
والشعر التعليمي.

الموضوعات المستحدثة:

- ١ - الغزل بالمذكر : يحمل وزر هذا الإثم جماعة من مُجَنِّان الشعراء ، وفُسَّاقهم
ومُخْمُورِيهم ظهرُوا في مطلع العصر العباسي ، على رأسهم "بشار بن برد" ، وأبو
نواس "ومطيع بن إياس" ، وحماد عجرد ، و"يحيى بن زباد" ، وكانوا يشربون
الخمر ، ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجوازي ، والغزل الدُّنس بالفلمان
متحررين من كل خُلُق وعُرف ودين ، ويرجع السبب في ازدهار هذا الغرض إلى :
١ - كثرة الشعراء من الفرس ، الذين كانوا يطهرون الإسلام ، ويبطنون الإلحاد والزندقة.
٢ - اضطراب النفوس ، وتسَلُّط الشك على العقول من كثرة المقالات والمساطرات
ولشيوخ المذاهب الفلسفية ، مما جعل كثيرين يستهزئون بقيم المجتمع الإسلامية.
٣ - كثرة الرقيق . ودور النخاسة التي كانت أسواقاً للعبث ، وهو عبث صحبه غير قليل
من الفجور ، حتى لِيُعَذَّ الغزل بالمذكر - عند أبي نواس " وغيره - الخطأ خلقياً
شنيعاً.

- ٤ - كثرة اتخاذهم للجوازي والإماء ، وتسليطهن على الحياة المنزلية مما أدى إلى اخلال
الروابط الاجتماعية ، ومن هذا الغرض قول "مطيع بن غياث" :

اخلع عذارك في الهوى واشرب معتقة الدنان
لا يلهينك غير ما تهوى فإن العمر فان
وهذا النوع له يكن معروفاً لدى العرب قبل ذلك ، فهم قد عرفوا الغزل الصريح

ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الدعوة إلى الفسق والصرخة المزرية، وما أنشده الشعراء في هذا الغرض الماكن بمسك القلم عن تسطيره؛ حتى لا يدنس بهذا العهر والفجور، فسطيره عار في حق الأدب، فضلاً عن الدين، وربما كان أخف بيت عنراً: قول "أبي نواس" في راهب:

جادلته في قبلة فأجابني لا والمسيح وحرمة الناقوس

٢ - الزهد والتصوف: لقد كان هذا الغرض الشعري "الزهد والتصوف" بمثابة رد فعل للغرض الذي نشأ في الدولة العباسية، وهو "الإباحة والمجون"، حيث إن نوااميس الحياة تقرر أن تُزوع طائفة إلى الغلو والإفراط يقتضى نشوء طائفة أخرى تكون مضادة لها في الاتجاه، وذلك مثل ما يقرره علماء "الميكانيكا" أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار مضاد له في الاتجاه، فمثل هذا القانون ينطبق تماماً على ما أومأنا إليه آنفاً من أن الطائفة التي كان فيه غلو وإفراط، نشأت طائفة أخرى كانت مضادة لها في الاتجاه. ألا وهو الغرض الذي يدعى "الزهد والتصوف".

وإذا كانت حانات الخمر، ومقاصف المجون قد ألفت بين أهل الفسق، فإن المساحد قد اكتظت بالوعاظ والنسك. وأهل الحديث والورع، ومن حولهم العامة تسمع حديث الرهد في هذه الحياة القصير أحلها، وإن طال، وإنه ينبغي أن تكون دار زاد لدار معاد، وأن الناس مسافرون، وعماء قليل راحلون، فإما عذاب مستديم، وإما نعيم مقيم^(١).

وقد انتشر شعر الزهد. وكان أكثر اتصالاً بحياة الجماهير من شعر المجون؛ لأنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة، فإذا كان كتاب الأغاني يفيض بالمجون. فإن كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأحمار العبادة والزهد، وقد تعهم كثير من الشعراء يرددون نفس النغم. حتى شعراء المجون من باب منهم إلى رشده ترك حياة المجون، وانطلق لسانه بمعاني الزهد.

(١) العصر العباسي الأول - د/ شوقي ضيف.

- فهذا "أبو نواس" يقول :

وما الناس إلا هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
وقول "مالك بن دينار" المحدث الناسك :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه وأين المزكي إذا ما افتخر
تروح وتغدوا بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر

٣ - الشعر التعليمي : يذهب المشتغلين بالأدب إلى أن فن الشعر التعليمي كان مما
استحدث الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أصول قديمة ، وأن الذي دفع إليه هو رقى
الحياة العقلية في هذا العصر ، وليس للعرب سبق في مجاله .

وهذا ليس بصحيح ، فإن العرب سبقوا إليه وعرفوه في العصر الجاهلي ، ورأوا أنه
ينبوع ذوق الشعر ، فلم يرد إلا نادراً في شعرهم ؛ لأنهم لم يكونوا يستحسنون أن يسلك
شعراؤهم هذه المسالك التعليمية ، وخير دليل على أن هذا الفن لم يلق قبولا لدى الأذواق
العربية : ما يروى من أن "الراعي النميري" أنشد قصيدة في "عبد الملك بن مروان" فلما بلغ
قوله :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تتزيلاً

فقال "عبد الملك" : ليس هذا شعراً ، هذا شرح إسلامي وقراءة آية ، و"الأخضر بن
شهاب" في العصر الجاهلي شعر تعليمي تاريخي ، وكان يقيد فيه وقائع "حرب البوس" بين
قومه تغلب وبنى بكر .

ومن الشعر التعليمي في العصر العباسي ما نظمته "إبان اللاحق" و"أبو العتاهية" الذي

نظم مزدوجة في الحكمة منها :

وخير العيش ما كان الكفافا من اتقى الله رجي وخافا

ومن ذلك قول "إبان اللاحق" في منظومته الفقهية :

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما جاءت به الشرائع

فرمضان شهر معروف وصومه مفترض موصوف

٤ - الشعر الفلسفي : وهو الشعر الذي يعمل آراء عقلية وفلسفية

ومن شعرائه "أبو تمام" الذي يقول :

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجد وصاغ الأنام من عرضه ^(١)

وقوله :

قد غرستم المودة والشحناء في قلب كل قار وباد

أبغضوا عزبكم وردوا نداكم فقروكم من بغضة ووداد

لا عدتم غريب مجد ربقتم في عراه توافر الأضداد ^(٢)

ومن الشعر الفلسفي : ما قاله "ابن الرومي" يمدح "إسماعيل بن بلبل" :

قالوا أبو الصفر بن شيبان قلت لهم : كلا لعمرى ولكن منه شيبان

وكم أب قد علا بابين درى شرف كما علت برسول الله عدنان

تسمو الرجال بأبء ، وأونة تسمو الرجال بأبناء وتزدان ^(٣)

رواية الشعر ورواته :

كانت رواية الشعر منذ العصر الجاهلي وسيلة مهمة لشبوعه ونشره ، وكان لكل

شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية ، يصحبه ويروي عنه أشعاره ، ويشهرها بين

(١) الصنيع البديعي في اللغة العربية - د/ أحمد إبراهيم موسى ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرشح للمرئوس ص ٢٨١ .

الناس، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده، وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفهية، ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً، وعن الرواة كانت تنشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل. بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه. ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين^(١).

ولا شك أن الرواة كان لهم دور كبير في الحفاظ على الشعر، فقد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصر التدوين، وحافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد، وخاصة الشعراء والرواة، وبذلك أسلموه للأجيال التالية، وإن كان قد شابه شئ من الانتحال والوصع.

وفي نهاية العصر الإسلامي، ومطلع العصر العباسي نشأت طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم.. وأهم هؤلاء الرواة "أبو عمرو بن العلاء"، و"حماد الراوية"، و"خلف الأحمر" و"محمد بن السائب الكلبى"، و"المفضل الضبي". وقد استقروا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بين البدو أنفسهم من حاجر إلى الكوفة والبصرة، حيث هؤلاء الرواة العلماء لينهدهم لما يريدون.

ومن أسباب الاهتمام بجمع الشعر وروايته: الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ القرآن الكريم، ووضع قواعد اللغة، على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر ذاته، ومن أجل نفسه..

وقد كان في الكوفة مدرسة للرواة، وأخرى في البصرة، كما يذكر الدكتور / شوقي صيف، فلا نكاد نغضى في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين: مدرسة في الكوفة، ومدرسة في البصرة، وغرف الأولون بأنهم لا يتشددون في رواياتهم تشدد الآخرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم، ودخلها موضوع ومتحل كثير، ولعل من

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ١/٦٤: ٦٥.

الظريف أن تعرف أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً.
يقول أبو الطيب اللغوي: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه في البصرة، ولكن أكثره
مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في روايتهم وندد لهم البصريون كثيراً
ويادلهم الكوفيون نفس التنديد، ولكن إذا صفينا التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن
رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة، وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة
في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواية البصرة، فإن الطرفين جميعاً متهمون، وموثقون
أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحري.

ربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس روايتها
وهو "أبو عمرو بن العلاء" كان أميناً، بينما كان رأس رواية الكوفة "حماد" وكان متهماً كثير
الوضع.

ومن رواية الكوفة الذين عاصروا "حماداً" واشتهروا بالوضع "برزخ العروضي"
وكان من أكذب الناس في رواية الشعر، ومثله "جناد"، وكان يخلط في الأشعار، ويصحف.
وكان في الكوفة رواة ثقات، على رأسهم "المفضل الضبي" صاحب "المفضليات"
وأجمع الرواة: الكوفيون والبصريون على توثيقه، وكان عالماً علماً وثيقاً بالأشعار
والأخبار.

أما في البصرة وفي الحقة التي تلت "أبا عمرو بن العلاء" فإننا نجد لها "خلفاً الأحمر"
الذي تسدد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقل عن "حماد" في معرفته بأشعار العرب
وأخبارهم، والأصمعي يقوم في البصرة مقام "المفضل الضبي" في الكوفة.

ومن رواية القرن الثالث وعلى رأسهم "أبو عمرو الشيباني"، و"ابن الأعرابي"
الكوفيان، وآخرون مثل: "محمد بن حبيب" و"ابن السكيت"، و"الثعلب". وانتهت الرواية
في البصرة إلى "ابن سعيد الحسن بن الحسن السكري" المتوفي سنة ٢٧٥هـ، وإليه الفضل في
جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين: البصرية، والكوفية^(١).

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي - د/ شوقي ضيف ص ١٥٣.

مدارس الشعراء المحدثين

مدرسة "بشار بن برد" وخصائصها:

هو "أبو معاذ المرعث العقيلي"، ولد "بشار" ضريباً بالبصرة، لمولى ليراني، كان يفتخر بأنه من أولاد ملوك "خراسان"، وقيل: "طخارستان"، كان أبوه قدم إلى البصرة من الأسرى الذين أسرههم "المهلب بن أبي صفرة" لما ولي "خراسان"، وأعتقت "بشار" مولاته، وكانت عربية من أشراف البصرة، فبقى في هذه المدينة، ولكنه كان يزور بعض الأمراء ويمدحهم ومن ذلك زيارته "لسليمان بن هشام بن عبد الملك" وهو في "حوران"، وقيل: إن "بشاراً" صاحب "واصل بن عطاء" مؤسس مذهب الاعتزال. كما قيل: إنه كان يفضل مذهب المجوس، الذي دان به أباه، فقال بعض الأدباء: إنه فاخر "جريباً" وهجاء بأشعار كثيرة؛ أملاً في أن يجنيه "جريب" فيشتهر ذكره، وهجا "بشار" كثيراً من الشعراء وغيرهم، فكثير أعداؤه. ولم يعتزئ عليه أحد، ولكنه بعد أن مدح "المهدي" فاستحسن مدائحه، ونهاه عن ذكر النساء حملته جراته على هجاء الخليفة "المهدي" ووزيره، فعمد الخليفة إلى البصرة وأمر بإحضار "بشار"، وضربه سبعين سوطاً، وظل "بشار" يضرب حتى مات سنة ١٦٧هـ. وكان "بشار" كثير التصرف في فنون الشعر. وهو يصور الأشياء بقوة خاصة به ما تركه حاسة السمع والشم من آثار النفس.

وكان غزله قوي التأثير حتى نهاه "المهدي" من أجل ذلك عن التشبيب بالنساء وتجلجلى قوته في شعر الهجاء، يقول عنه "ابن المقند": كان شاعراً مجيداً، مغلقاً، ظريفاً محسناً. خدم الملوك، وحضر مجالس الخلفاء، وكان يمدح "المهدي"، ويأس به، ويدنيه ويخزل له في العطايا، وكان صاحب صوت حسن. وكان إذا حضر "المهدي" في مجلس مع جواريه بعث إليه: لأجل المسامرة، والمحادثة. وكان "بشار" يُعَدُّ من الخطباء اللغناء الفصحاء، وله قصائد وأشعار كثيرة، وقد أثرت في حياة "بشار" وفي شخصيته الأدبية عوامل متشابهة، فقد كان مولى، وكان يحس بعمق أنه قن ابن قن، وأنه من أسرة فقيرة متخلخة في المجتمع. فانطوى على مرارة ولدت فيه ميلاً قوياً إلى العدوان، وقد ورث عن

جنسه الفارسي مزاجاً حاداً، واندفاعاً شديداً نحو المتع الحسية، وضاعف ذلك عنده أنه كان مكفوفاً، فغدت وسيلته إلى الجمال والإحساس به حسية وسمعية ولمسية. واندمج في هذه المكونات الشخصية والجنسية مكون البيئة، وما كانت تكتظ به من دور الرقيق والجواري والإماء. واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية في تكوين شخصية "بشار".

والمهم أن "بشاراً" كان واقفاً على ثقافة عصره ومعارفه الدخيلة، وكان لها تأثير واسع فيه، وربما كان أهم ثقافة أثرت في شعره الثقافة العربية، التي هيأته للتفوق في الشعر وساعدته على ذلك نشأته اللغوية، واختلافه إلى المربد، وأيضاً خروجه إلى البادية^(١).

خصائص شعره :

أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم على أنه هو الذي نهج للعاسيين طريقتهم الجديدة، وهى طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الأصول التقليدية للشعر القديم حتى تبدو فيه نزعة محافظة، وخاصة في مدائحه، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلاً. ولا يعنى ذلك أنه كان عاتياً في مديحه عن عصره، فهو يزواج بين الماضي والحاضر، يصف الأطلال ولكنه بذوق حضري جديد، فيه رقة، وفيه دقة، وفيه استبطاء المعاني وتوليدها.

إنه ربيب بيئة المتكلمين، وقد أخذ عنهم قدرتهم في بسط الأدلة، وتفصيل الأفكار وتفريغها، وتنشيع المعاني وتشويقها، كما أخذ عن الفرس أمثالهم، وحكمهم، وتحول إلى معاني الشعر الجاهلي يستخلص منه ما لا يخص من حواطر وبعد، فلقد كانت صفة "بشار" في شعره تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية في الشعر العربي، والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة، ثمت "بشار" هذه الطريقة بحيث أصحت منهجاً عاماً للشعراء من بعده، بحيث عُذَّ بحق رعيم المحدثين .

ويقول الدكتور / أحمد إبراهيم موسى "عن مدرسة "بشار" : "اتسمت هذه المدرسة بالإكثار من ألوان البديع بالنسبة إلى القدماء، وبالسذاجة والسهولة، والقرب من صدق

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٥٠ وما بعدها .

القطرة، وسلامة السليقة بالنسبة إلى متكلمي البديع من المحدثين، كما امتازت عن العهد وإلى هذا فقد بدا الطابع الثقافي على ألوان البديع التي استخدمها رجال هذه المدرسة بدءاً تعتبر حديثاً بالنسبة للأقدمين، وإن كان قليلاً خفيفاً مشهوراً بالنسبة إلى من جاء بعده من المحدثين^(١).

مدرسة "أبي نواس" ومذاهبها في الشعر:

هو "الحسن بن هاني"، ولد بالأهواز سنة ١٣٩هـ، وكان أبوه مولى لآل الحكم بن الجراح من بني "سعد العشيرة" اليمينيين. قدم إلى هذه البلدة مع جند "مروان بن الحكم" ومات "هاني" وابنه صغير، فانتقلت أمه إلى البصرة وهو ابن ست سنين، فأسلمه إلى الكتاب، وقد حذق "أبو نواس" الفارسية عن أمه. حتى إنه استخدم مثلاً فارسياً في شعره وقد نشأ بالبصرة فلم يطلب عيشه بها، فقد كان يشعر فيها بأنه عبد رقيق، لا حر طليق فرحل إلى "الأهواز"، ثم إلى "الكوفة"، ثم إلى "بغداد"، وذكره "ابن إسحاق الموصلي" للرشيد، فأذن له بالدخول عليه، ومدحه "أبو نواس"، ولكنه برغم ذلك لم يلق من الخليفة كل ما تمناه، بل وجد ذلك عند "البرامكة"، الذين خصّوه بمحظوة كبيرة، وفي سنة ١٨٧هـ رحل إلى "مصر"، فمدح وإلى الخراج بها الخطيب ويرى الدكتور / "طه حسين" أن "أبا نواس" لم يخلص في مدح الرشيد والبرامكة إحصاءه في مدح الخطيب.

وبعد وفاة الرشيد رجع إلى بغداد، وبدوا أنه لقي حظوة في قصر الخلافة مدة حكم "الأمين"، وإن حسه "الأمين" زمناً قصيراً لخلاعه. واحتلف الرواة في سبب وفاته وتاريخ ذلك. فقيل: إنه هجا "بني نوخت" فألّوا عليه موابله أن يعصروه، فمات، وقيل: إنه مات في السجن، وكان قد حبس لشعر قاله فيه فسق

(١) الصنع البديعي في اللغة العربية ص ٦٣ - ٦٤ - د/ حمد إبراهيم موسى - دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٩م.

سنة ١٩٠هـ. وقيل: كانت وفاته بين سنة ١٩٥هـ، وسنة ١٩٩هـ^(١).

وقد أجاد "أبو نواس" فن الخمریات، ودعا إلى ترك المقدمة الطليبة، وامتاز بفحشه ومجونه، وصراحة قوله، وصدقته في التصوير، وبعد ثاني "بشار" في منزعه لفظاً ومعنى. وقال الجاحظ: "بشار" و"أبو نواس" معناهما واحد، والعدة اثنان: "بشار" حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً، ولا تعب في عمل شعر، و"أبو نواس" حل من الطبع، بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن.

وكان مشهوراً بالفتوح، وهو - على رفته ومجونه - جزل الألفاظ، فخم الأسلوب كثير الغريب، ولقد ابتدع في الشعر أنباء أنكرها العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، مثل: استهتاره في الفجور، واسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف الذكر، ولا شك أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصفة في تاريخ شعر العرب^(٢).

خصائص شعره:

إن الشاعر "أبو نواس" في مكوناته الشخصية يقترب من الشاعر "بشار بن برد". حيث إنّه أله إلهاماً كبيراً بثقافات عصره، كما أنه ورث عن "الفرس" حدة المزاج، وأخذت البيشة الماجنة تذكى أوار هذه الحدة بكل ما أخذه عن الشاعر "واله". وأضرابه، وكان يتنوع المعاني في الغزل، وذلك حين يتغزل في شعره، وكيف يستمد من أوعية القديم في "الحنين" والصد والإعراض. والدلال، وما تتلألأ فيه خواطره، وتتألق فيه أحاسيسه، وكان ينحوا في غزله متحى سهلاً حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب، وكان يتوفر في مديحه وشعره الرسمي. ويختار له إطاراً جزلاً قوياً متيناً، يقدم له بوصف الصّحراء على طريقة القدماء، وكان ينجح في مديحه إلى "المبالغة والإسراف" على نفسه في الارتضاع بالمدح والحنين عن البشر، وبذلك كان من أوائل من أعدوا لانتعاش المبالغة في المديح العباسي

(١) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ٢٥/٢ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٣٩، ٣١٠.

ومضى الشعراء من بعده يبالغون في المديح ، حتى إنهم رفعوا مدحهم إلى مرتبة الآلهة .
 وواضح مما قدّمنا أنّ صناعة الشعر لدى الشاعر "أبي نواس" كانت تعتمد اعتماداً
 شديداً على الإطار القديم في المديح والثناء ، وما يشبههما بينما كانت تنفك من هذا الإطار
 أحياناً في الغزل ، والحمريات ، وقد تطلّ له قوّة البناء فيهما ، وتطلّ له روعة التصوير
 ورقة العاطفة والإحساس ، والشعور والمرهف ، والدقّ الأدبي الرقيق ، وقد يهبط إلى لغة
 العامة ، وذلك حين يعمد إلى العبث والهزل ، ويهبط أحياناً إلى أسلوب ليس فيه شئ من
 القوّة ، وكان يعمد فيه إلى اللحن أحياناً^(١) .

ويروى لنا صاحب كتاب "طبقات الشعراء" فيقول : "كان "أبو نواس" أدب الساس
 وأعرفهم بكلّ شعر ، وكان مطبوعاً لا يستقصي ، ولا يجلّ شعره ولا يقوم عليه ، ويقول
 على السكر كثيراً ، فتعمره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو في الرّبا جودة وحُسن وقوّة
 وما هو في الحصبص ضَعْفاً وركاكة"^(٢) .

يُبد أن "أبا نواس" قلماً يذهب مذاهب القدماء في أساليب الشعر ، وقد تولدت أشعار
 العبد المعروفة "بالطرديات" من وصف الوحش ، وحيوان الصحراء ، والذي يشيع كثيراً
 ويظهر في أشعار القدماء . ولكن يبدو أن "أبا نواس" هو الذي سبق إلى وضع أسلوب ثابث
 لهذا المذهب الشعري . ولعل بعض شعراء بني أميّة قد وصف ملاذ الصّيد والطرد . وإن لم
 نعرفه معرفة أقرب إلى التعيين والدقّة ، ثم تبعه "أبو نواس" في ذلك ، فإن مذهبه فيه متقن
 ولا يشبه أن يكون مستحدثاً^(٣) .

مدرسة "مسلم بن الوليد" وخصائصها الفنية :

هو الشاعر "مسلم بن الوليد" ، والذي يكنى "أبو الوليد" ، ويلقب "بصريع الغواني"
 ولد "أبو الوليد" بين سنتي ثلاثين ومائة للهجرة ، وستة أربعين ومائة للهجرة أيضاً ، وعاش

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٦٠ وما بعدها بتصريف

(٢) طبقات الشعراء - لابن المعتز ص ١٩٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ص ٢٧ نقل النكتور / عبد الحليم النجار .

في "بغداد"، فاتخذ من الشعر حرفة له، ينظمه في المناسبات، والمديح حيث إن الشاعر "مسلم بن الوليد" كان يمدح "هارون الرشيد"، بل كان الشاعر "أبو الوليد" كثير المديح للخليفة "هارون الرشيد"، و"البرامكة"، كما مدح من بعدهم "الفضل بن سهل"، وزير المأمون، وهو ابن "هارون الرشيد"، وجعله "المأمون" صاحب "البريد"، "بجرجان"، ولحق بربه بها، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين للهجرة (٢٠٨هـ).

وقد أحيا الشاعر "مسلم بن الوليد" مذهب شعراء بني أمية في هجائه للشاعر "قنبر" بيد أن "محمد بن داود" يأخذ عليهم في كتاب "الورقة" أنه أفسد مذهب القدماء، وذلك بالغلو في التشبيهات، ويقول "الأمدي" في الموازنة:

"إن أبا تمام سلك طريقه في البديع"، فاضمحل بهما شعر العرب - كما قال "أبو هلال العسكري" في كتابه "الصناعتين" - وهو مصدر أساسي من مصادر علوم البلاغة العربية: "إنه جَارٌ على وتيرة واحدة لا يتعد عنها"، وفي أخبار "مسلم بن الوليد" وأشعره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً، وأغلب الظن أنه كان من موالى "الفرس"، ويبدو أن مواهبه الشعرية قد استيقظت في نفسه مبكراً.

ويُعدُّ الشاعر "مسلم بن الوليد" أول من عاش لمذهب "البديع"، والتصنيع، بنميه وقد تناوله منه الشاعر "حبيب بن أوس الطائي"، والمكنى بـ "أبي تمام"، فبلغ به الغاية واجتار فيه النهاية^(١).

ويقول الأصفهاني في أغانيه: "وهو فيما زعم أنه أول من قال الشعر المعروف بـ "البديع"، وتبعه فيه جماعة كان من أشهرهم "أبو تمام الطائي" بيد أن "مسلم بن الوليد" هو صاحب هذا المذهب الجديد من "التصنيع"، وهو الذي اقترح له اسمه "البديع".
و"مسلم بن الوليد" يعتمد في شعره اعتماداً كبيراً على "الإطار التقليدي"، وما يرتبط

(١) تاريخ الأدب العربي - لكارك بروكلمان ٣٢/٢ .

• الموازنة للأمدي .

• الصناعتين لأبي هلال العسكري .

به من جزالة الأسلوب، ومئاته، وجماله، ونصاعته، وبلاغته، وقوته. حتى في غرله وخمرياته فإنه لا يهبط أبداً على نحو ما يهبط "أبو نواس" إلى الأساليب اليومية. يعنى "أسلوب العامة"، ويغلب على شعره أن يكون من الأوزان الطويلة حتى يتلاءم مع ما يريد من "جرس" قوى، وضخامة البناء في اللفظ، والتعبير، وهو من هذه الناحية يعدّ في طبيعة من دفعوا الشعراء العباسيين إلى التمسك بالأسلوب الجزل القوى.

وهو صاحب رؤية غير مترجل، ولا يقول الشعر عفو الخاطر، فالشعر لذيته صناعة مجتهدة، ومرهقة لا بدّ فيها من التريث والتأني والتمهل، والعسقل والتحويد، ونعل ذلك ما جعل "ديوان الشاعر" صغيراً، وضئيل الحجم بالقياس إلى دواوين الشعراء المعاصرين له من أمثال: "أبو نواس"، و"بشار بن برد"، وهذا البناء الضخم لديه غير كافٍ بمحامته وحدها في رأيه، ولكن لا بدّ من إضافة الزخرف الجديد، والذي كان يأتي على قلّة في الشعر القديم، وأكثر منه الشاعر "بشار بن برد" وحلفاؤه، بيد أنهم لم يتخذوه مدهاً أما الشاعر "مسلم بن الوليد" فقد طبقه على شعره^(١).

ويقول الدكتور / أحمد إبراهيم موسى "في مدرسة مسلم بن الوليد" واتجاهاتها الفنية: "كانت مُبالغة "مسلم" وإسرافه في أصباغ السديع، وحشده لكثير منها في القصيدة الواحدة، بل في البيت الواحد، مع إحكام المعنى، ودقة الصنع سبباً في استقلاله بمدرسة واحدة، واضحة المعالم، ومستوية الجوانب يردّها الوراد فيغيدون منها فائدة قريبة شاحلة من غير تعب، وبدون متعة"^(٢).

ومن بديع ما يروى له قوله :

إن كنت تسقينا عين الراح فاسقى عيناك راحي وريحتي حديثك لى
كأما الذبها من فيك تشمى ولون خبتك لون الورد يكفى (٣)

(١) الثن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٨٢ وما بعده - تنصرف .

(٢) الصنع البديعي في اللغة العربية ص ٧٨ .

(٣) طبقات الشعراء: لأبى المعتز ص ٢٣٨

الخصائص العقلية والفنية عند مدرسة "أبي تمام":

هو "أبو تمام" حبيب بن أوس الطائي، أحد الأعلام الشائعة في عالم الأدب وبعض الأطوار الراسخة في شعر العرب، وقد لمع مع التاريخ ذكره، وانتشر في الآفاق خبره، وتوج به فنه الأدبي حتى أجلسه على سرير الملك بين الأدباء، وسواه على عرش المكانة الأولى من طنب الشعراء.

والمعروف أن سلسلة نسبه تصله بالآفاق العربية اليمنية الطراز، وأن صُلَيْبته الطائية حقيقة لا مجاز، وأنه يعرّبى الجزم، يبنى التجار. ومن ثروا عقود تلك السلسلة: "الخطيب البغدادي"، و"ابن خلكان"، و"عبد القادر البغدادي"، و"يوسف البديعي"^(١).

وإن كانوا قد اختلفوا اختلافاً يَبْيناً في عدد الآباء، وتحرير الأسماء، ولهذا رأينا صاحب كتاب "الأغاني" يضرب صفحاً عن ذلك النسب، ويكتفي بقوله: "من نفس طئي صلية"^(٢).

وزعم بعض الناس أن عروبه سميت مصنوع، وأمت مطبوع، وحلى صاغة "أبو تمام" لنفسه لما كان يحاط به النسب العربي يومذاك من سحر وبهر، وتجاوز بالشخص إلى عنان السماء، ومن هؤلاء "الحسن بن بشر الأمدى"^(٣)، الذي أثار عثير هذا الشك إلى أن تلقفه المستشرق الإنجليزى "مارجوليوث" فقط أن هذا النسب مزعوم، وأن "أبا تمام" كان نصرانياً فأسلم، وغير اسم أبيه من "قادوس" إلى "نيودوس"، إلى "أوس"^(٤).

ولقد أبى الدكتور / طه حسين على العهد به دائماً إلا كبر هذا المزعم، مؤيداً في ذلك ما ذهب إليه المستشرقون.

والذين قاموا بالترجمة "لأبي تمام" يردون زمن ولادته بين سنتي (١٧٢ . ١٨٠)

(١) تاريخ بغداد ٢: ٤٨٨، ووفيات الأعيان: لابن خلكان ١: ١٥٠، خزائن الأدب ١: ١٧٢، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٩

(٢) الأغاني ٧٦/١٥ طبعة القنم.

(٣) أوائل الموازنة والأغاني ١: ١٥٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢/١.

(١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢) كما نرى صاحب "معاهد التنصيص" يرد زمن ولادته بين (١٧٢) ، (١٨٨ ، ١٩٠) ، ويزيد "ابن خلّكان" فوق هذه الثلاثة (١٩٢) وفي نزهة الألباء نقلاً عن ابنه "تمام" أنه وُلد سنة ١٨٨ هـ ، وفي "خزانة الأدب و سراج العيون والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة" لـ "ابن تغرى بردى" الأتابكى الأشعري : أنه وُلد سنة ١٩٢ هـ ، وهى التى حدده الشاعر نفسه عندما سُئل عن موعد مولده . ونرى المشتري "جليون" يقرر أنه وُلد سنة ١٨٠ هـ ، أو سنة ١٨٨ هـ (٧٩٦ أو ٨٠٤ م).

وفي دراسة متأنية عميقة ، مدعومة بالأسايد العقلية والدلائل التاريخية رجّحنا أنه وُلد سنة ١٩٠ هـ^(١) .

والمؤرخون عدا صاحب "الأغاني" متفقون على أنه وُلد بقرية "جاسم" ، وهى إحدى قرى "الحُدُور" ، وهى من أعمال "دمشق" بسورية العربية . ويقول "ياقوت الحموي" : "إنها تقع على ثمانية فراسخ من "دمشق" على يمين الطريق الأعظم إلى "طبرية"^(٢) ويدر "أبو الفرج الأصفهاني" أنها قرية من سواحى "مسج"^(٣) ، وهى الآن من قرى "حوران" سورية . فلقد نشأ الشاعر في هذه القرية ، فتفتت شاعريته ، وكان أبوه يعمل "خماراً" في "دمشق" . ولا يجمع من تجارته أكثر مما يكفيه ، ولما كثر ابنه رحل إلى هناك حيث عمل خادماً عند حائك كما يذكره "ابن خلّكان" ، ولكن نفسه الأبية أبت الاستمرار في هذه العمل ، وقرر أن يخلف ثوب النصرانية ، ويتخذ الإسلام سرّاً ، فأعلن إسلامه وخرج على الفقر كما خرج على الكفر ، وشمر عن ساعد الجد لينعم في ظلال الإسلام بحياة رغدة ، وقد مات أبوه في هذه المرحلة ، فاتجه إلى "حمص" ، ثم اضطر إلى الهجرة منها . فكانت هجرته إلى مصر تلك اللد المضياف التى تنزل روادها دائماً الجنات الأنف و عديم نزل بساحتها شعر بالأمس ، فدخل إلى جامع "عمر بن العاص" ^{عنه} يستقى

(١) الوفيات ١/١٥٠ ، تاريخ بغداد ٨/٢٥٢ ، دائرة المعارف ١/٢٢٠

(٢) معجم البلدان ٣/٣٧

(٣) الأغاني ١٥/٩٦

معارف الكتاب، ويسقى عذب الشراب، وفي ظلال هذه الجامعة العلمية أنشأ ارتشف الرّضاب العلمي، وكرع من المعرفة ما شاء له، ومن هناك تدفق صيبه الشعري، ثم ذهب إلى "بنداد" حيث استقرت به عصا التسيار هناك، وقد امتاز "أبو تمام" منذ نشأته بدمائة الخلق، وكان طويل القامة، فصيح اللسان، يتمتع باللون الأحمر الجذاب، ومع فصاحة لسانه كان يشكو حبسة يسيرة في النطق بالكلمات، كما كان ألمعياً حاد الذكاء، كريم النفس، مرهف الحس، قوى الحافظة، سريع الاستيعاب، وقد أتهم بأنه كان ذا قروح في دينه، وجروح في فتيه، مولعاً بالفساق، ومنادمة الأصحاب على الشراب^(١). وفي رأينا أن هذا التشنيع على "أبي تمام" كان من حسّاده وشائتيه.

كل العداوة قد يُرجى محبتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

فقد رموه بالكفر، وعبادة السلات والعزى، ونقص ركعات الصلاة^(٢) على أن المجمع عليه أنه لم يعلق فتاة، ولم تلن له أمام امرأة قناة، ولهذا كان غزله في شعره غزلاً صناعياً، وكان ضعيفاً متخاذلاً، ومن المعروف أن "أبا تمام" كان عالى النفس، شديد الثبيل، سايع العطف على أهل التعفّف، خاصة في دارة الأدباء والشعراء، ولقد كان الفقر هو المزرعة التي نما فيه عوده، واخضرّ وجوده، وألبسته حلة حالكة السواد.

يُبد أن الحياة الأدبية التي حياه بها القدر كانت كفيلة بأن تقتص جناح مثرّيته، وتنقله من الفقر إلى الغنى، فلقد درّ عليه شعره كثيراً من المال، ونفحه أدبه بغزير من النوال، يُبد أنه كان مُسرفاً مبتلاًفاً، خاصة في ميدان مساعدة المعوزين، وكان مثله الأعلى في ذلك قوله: إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولهذا كان يوزع بالشمال ما كان يجمع باليمين، غير آبه بالمستقبل، وما نخسه الأيام، وقضى "أبو تمام" حياته كالطائر المنرد، ينتقل من فنن

(١) الأغاني ١٥/١٠٠، ١٠٣، والصولى ص ١٨٤، وزهى الأداب ١٣٢/٣، وشرح العيون ص ٢٠٧.

(٢) الصولى ص ١٧٣.

إلى فتن، ومن غصن إلى غصن، ويطير من أيك إلى أيك، وقد دفعه العقر أولاً إلى الارتحال
لطلب المال، فذهب إلى "حمص"، ثم دلف إلى "مصر"، ومكث بها خمس سنوات، ثم
رحل إلى "بغداد"؛ طمعاً في الإمداد وزيادة الرزاد، ولما أخفق في لقاء "المأمون" خفق في سماء
"المعتصم"، فنزل أكرم ساحة بين الشعراء والأدباء، ولدى الوزراء والعظماء، والقادة
والرؤاد، فيقول:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وكانت الحياة في أيامه تموج بكثير من المذاهب السياسية، وكانت الدولة في عهده
علوية، واستطاع "أبو تمام" أن يحتاز كل هذا، وطل شاعر الخلافة المحب، فقد كان علوياً
وكان يظهرها أحياناً.

أما منهجه في شعره: فقد كان من المولعين بالصنع البديعي الصعب، كما كان كلفاً
بالعريب. فأتجه إلى المعاني، ناسياً سلامة المباني، ومال إلى الإسراف في التزيين حتى فتح
على نفسه أبواب النقد اللاذع، وحتى قال "دعب" عن شعره: "إنه حظابة"، وقال ابن
الأعرابي: "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل"^(١).

ويتناول القاضي الجرجاني: "إن ذلك دفعه كثيراً إلى أن يخلط العرر بالمرر"^(٢)
وقد كان شاعراً قوياً، خاصة في مجالي "الرثاء"، والثناء، ولكن كثيراً من أبياته يظهر
فيه التكلف.

وتتلمذ عليه "ابن الرومي"، و"إبراهيم بن الفرج"، و"الصنوبري"، والذي يلقب
"بجيب الأصفر"، وأولع "ابن خفاجة الأندلسي" بمنهجه، وتعتمد الصنعة فاستعمل العريب
والمحسنات، فانبهم شعره. واستعلقت معانيه كما ذكر "ابن بسام" صاحب "الذخيرة"
وكان الشعراء يحتكمون إليه، وينشدون أشعارهم بين يديه، فيحكم حكم القاضي
البصير، ويفصل فصل الناقد الجبير، وليس النّاج من يستحقه دون اعتراض أو احتجاج

(١) مواربة - لا يبي تعلم.

(٢) الوسطة ص ٢٢، ٢٨.

والتاريخ يعرف له المكانة الأولى في النقد الأدبي، ويحفظ له قدره في وزن الشعر العربي، والنقاد جميعهم سَلَمُوا الأمر إليه، واستحسنوا ما استحسَنَ وهجنوا ما هجَنَ، أما من حيث شعر "أبي تمام" ففيه الثَنُّ والثَمين، وفيه الجيد العالي والحشف البالي، والواضح أنه شاعر غَنِيٌّ في المعاني فقير في المباني.

والنقاد مختلفون فيه، فأصحاب المدرسة القديمة يصورونه خارجاً على الحدود متحلاً من القيود، وأصحاب المدرسة الحديثة بهرتهم دقة معانيه، وعمق أفكاره، فسلموه لواء الزعامة، ورأوا فيه قائداً لجيش الشعراء، ورائداً لركب الأدباء، وغفروا له هفواته وقالوا: "إن لكل جواد كبوات، ولكل عالم زلات".

أما خصائص شعره: فقد ذكر "ابن المعتز" أن "أبا تمام" كان كثير الاطلاع والدرس وأن "محمد بن قدامة" قال له: "يا أبا تمام"، إنك لتنظر في الكتب كثيراً، وتضمن الدرس فما أصبرك عليه! فقال: والله ما لي إلف غيرها، ولا لذة سواها، وإني لخليق إن افتقدتها أن أحن.

وهذه الثقافة الغزيرة التي تشبع بها "أبو تمام" كانت لها آثارها في شعره، وفي مكانته الأدبية، فهو رأس الطبقة الثانية من المولدين، جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر الحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله. ولطف خياله بالاطلاع عليها واستنبط طريقته من ذلك، وآثر فيها تجويد المعاني على تسهيل العارة، وهو أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكتابيات الحفية، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد، ولما رأى أن سلامة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر، فتوخي الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض، وأغفل عن بعض. وله معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي^(١).

ويقول "ابن المعتز" في شعر "أبي تمام": "لو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد، التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك، وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً، لأن

(١) طبقات الشعراء - لابن المعتز ص ٢٨٣، وتاريخ الأدب العربي - لأحمد حسن الزيات ص ٣٢١.

الرجل كثير الشعر جداً، ويقال: إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ما له جيد والردئ الذي له إنما هو شئ يثقل لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شئ يخلو من المعاني اللطيفة، والمحاسن والدع الكثيرة فلا^(١).

وفي تاريخ الأدب العربي "لكارل بروكلمان" وصف دقيق للخصائص العقلية والفنية في شعر "أبي تمام"، نختزئ منها ما يأتي:

شعر "أبي تمام" متأثر متأثراً كبيراً بشعر "ديك الجن"، ويقول "دعبل":
"لم يكن "أبو تام" شاعراً، إنما كان خطيباً، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر". وكان "دعبل" يميل عليه، ولم يدخله في كتابه "الشعراء"، وعاب "أبن المعتز" "أبا تمام" بأنه أفسد ذوق معاصريه بإفراط المعاني والمجازات، ويقول "أبن الرومي": "إن أبا تمام الطائي كان يطلب المعنى، ولا يبالي باللفظ. حتى لو تبين له المعنى بلفظة نصية لأتى بها، ولكن "أبن رستيق" يقول في "العمدة": إنه ابتداء بوضع قوافي القصيدة، وطلب الآيات بعدها:
ويروى أن "يعقوب الكندي" لما رأى كد "أسى تمام" ذهنه في تحلية شعره بالمعاني والديع قال فيه: "هذا رجل يموت قبل حينه؛ لأنه حمل على كيانه بالفكر".
وأنكر "الجرجاني" في "أسرار البلاغة"، و"المرزباني" في "الموشح" على "أبي تمام" كثرة استعمال الغريب المصدود عنه، من الكلمات وأسماء الأمكنة. وقلما وجدنا في شعر "أبي تمام" شيئاً في الحين والصبابة، كقصيدته في وداع صديقه "على بن الجهم" ورغم ذلك فهو يتنأ لشعره بالبقاء والخلود، وأن قصائده ستلى كما تتلى أخبار الغزوات والفتوح، وقد يكون "أبن الأثير" متأثراً في ذلك؛ إذ يزعم في المثل السائر أن في شعر "أبي تمام" طنين السلاح، كما أن "أنا الفرج الأصفهاني" سعاد أمير الشعراء، وأشاد "أحمد زكى أبو شادى" في كتابه: فوق العباب بقوة شاعريته، وأبدى أسفه لعدم بذل العناية الواجبة في الكشف عن نواحي عبقريته.

(١) صنفت الشعراء - لابن المعتز ص ٢٨٥ وما بعدها .

وقد سار كثير من شعر "أبي تمام" مسرى الأمثال ؛ لكثرة ما فيه من الحكم ، وحقائق
الكلم^(١).

وعن عناية "أبي تمام" بالصنع البديعي يقول الدكتور / "أحمد إبراهيم موسى" :
"بلغ الصيغ البديعي على يديه من التأنى والزينة ، والزخرف والتعقيق ، والتكلف
والتعقيد ، والمزج بألوان الثقافات الواسعة ، والخوض في بحار الفلسفة المتعمقة ، مبلغاً لم
يلغنه على يد شاعر كان قبله أو بعده ، فهو فيلسوف إذا عرض للفلسفة ، غوى إذا خاض
في النحو ، متكلم إذا جنح لعلم الكلام ، فقيه إذا خاض الفقهاء ، تاريخي إذا عرج على
التاريخ.

أغرم "أبو تمام" بأصباغ البديع ، فانتحى نحو "مسلم" ، وهام بذهبه ، حتى حلف
لا يصلى قبل أن يغفظ "ديوان مسلم" ، فتأثر بهذه الطريقة ، واستخدم في شعره تلك
الأصباغ التي استخدمها أستاذه ، ولا سيما الجناس والطباق والتقسيم ، ولكنه أرى على
أستاذه في هذه الصنعة بما جعله يمثل مدرسة وحده.. وقد امتازت طريقة "أبي تمام" بالمبالغة
المسرقة في الإكثار من هذه الأصباغ ، مع التكلف الواضح الذي ينتهي إلى أعماق غايات
القبح ، والاستكراه في كثير من صناعته ، كما يتضاءل أمامه ما رأيناه عند "مسلم" حتى
استحالت بذلك عن مألوف هيئتها ، ومعروف صورتها عند أستاذه.

كما امتازت بغمس أصباغ البديع في ألوان الثقافات الواسعة والفلسفة المتعمقة
حتى كانت إلى الغموض والالتواء والصعوبة والاستبهام. أقرب منها إلى الوضوح
والاستقامة ، والسهولة والجلال^(٢).

الموسيقى الشعرية عند "البحتري" :

"أبو عبادة الوليد بن عبادة عبيد الطائي" . وُلد في "منبج" أو قرية قريبة منها سنة
٢٠٦هـ ، واتصل في شبابه بـ "أبي تمام" عند حضوره إلى "حمص" ، فلما افتتح "أبو تمام"

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ص ٢٠٤ و ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) الصيغ البديعي ص ٨٢ ، وما بعدها .

بملكته في الشعر، أوصى له العطاء، ثم قدم "بغداد" فمدح المتوكل، وكبار رجال الدولة وأقام هناك زمناً طويلاً، فلما انقضت الخلافة إلى "المستعين" ومن بعده إلى "المعتز" لم يحظ "البحري" منهما بطائل، وترك بغداد، ورجع إلى بلده.

ومما يدل على شهرة "البحري" وذبوع شعره بين المتأخرين، أن أهل "حلب" في المائة الخامسة للهجرة عرفوا قبر حبيبته "علوة"، ويفتخر "البحري" نفسه بأصالة شعره، وما اجتمع له من العقل والتجربة في نفسه الذي حلا من تكلف حدود المنطق، وفضل "الجرجاني" في "أسرار البلاغة" سلاسة ألفاظه، ووضوح بيانه عن غموض "أبي تمام". وقد أحسن "البحري" في وصف الربيع إحساناً ظاهراً، نوه به "الثعالبي"، وأشاد بفضل، وفي أعراض الشعر القديم، كوصف الفرس استطاع أن يضيف نواحي جديدة حتى رفعه "العسكري" في ذلك على سائر الشعراء المحدثين. وتوفي في "حلب"، وقيل: في "منج" سنة ٢٨٤هـ^(١).

وللشاعر "البحري" الموسيقى الخاصة به، فقد عرف كيف يلائم بين ألفاظه، وكيف يرشح لقوافيه، ويهيئ لها مكانها، فقد كان شاعراً ممتازاً في "فن الصوت"، واستمر يستمد من القيثارة العتيقة في كثير من صورها وجوانبها. بيد أنه عرف كيف يستخرج من هذه القيثارة أصواتاً جديدة معجبة لأمثال الموسيقيين المتأخرين.

وكان يعرف في نفسه هذه الخاصية حتى قالوا: "إنه إذا أنشد ينشاد في حركته مرة جانباً، وأخرى القهقري، ويحرك رأسه مرة، ومنكبه مرة أخرى، ويقف عند كل بيت ويقول: "أحسن والله"، ثم يقبل على مستمعيه ويقول لهم: "ما لكم لا تقولون لي "أحسن"، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله".

ومهما يكن من شيء فإن "البحري" استطاع أن يحول موسيقاه إلى الحان، وأرقام موسيقية خاصة، وأقرأ له هذه القطعة:

لى حبيبٌ قد لَحَّ في الهجر جدداً وأعاد منه الضدود وأبدي

(١) تاريخ الأدب العربي - كلول بروكلمان ٤/٨: وما بعدها.

ذو فنون يُريك في كل يوم
خلقاً من جفائه مستجداً
يتأبى منعة وينعم .

أغتنى راضياً وقد بت غصباً
وأُمسى مولى وأصبح عبداً
وبنفسى أفدى على كل حال شادياً
لو يمسى بالحسن أعدى
مرّ بي خالياً فأطعم في الوصل
وعرضت بالسلام فسرّداً
وتنى خذه إلى على خوف
فقتلت جلاًجلاً وورداً
سِدى أنت ما تعرضت ظلماً
فأجازى به ولا خنت عهداً

ونرى صاحب "الصناعتين" يعجب بهذه القطعة أعجاباً شديداً، وحقاً إن "البحترى" استوفى فيها كل ما يمكن من وسائل التفوق في "فن الصوت"، حيث يبدأ فيوفى بين الشطرين في المطلع، ويجعلهما مصرعين هذا التصريح الذي كان يعجب به أصحاب البيان، ويلانم بين الحروف في الشطرين، فقد تكررت "الجيم" في الشطر الأول، كما تكررت "الدال" في الشطر الثاني، فأحدث ذلك توافقاً صوتياً بين الكلمات، وفي البيت الثالث يوفى بين الألفاظ توفيقاً دقيقاً، إذ جاء بكلمة "يتأبى" كأنها مشدودة إلى كلمة "ينعم" بواسطة هذا الرباط المحكم "متعاً"، وهنا نحس ما يصنعه التوافق الصوتي بين الحروف والكلمات وكذلك ما تراه من الطباق الصوتي بين "يدنو"، و"يبعد"^(١)، وكذلك بين الكلمتين :

"وصلأ"، و"صدأ"، وانظر إلى قوافي الأبيات، كيف أحكم قرارها، فقد تابعت منسقة تنسيقاً، وها هي "أبدأ"، "جداً"، "عبدأ"، و"أعدى"، و"فردأ"، و"عهدأ"، فإتاك تراها متحدة في عدد حروفها، وحركاتها، وسكناتها، وسمى أصحاب البدیع ذلك "التطريز"^(٢).

أحل : إن "البحترى" قد أحسن جانب "الموسيقى الداخلية" في الشعر، وما يستتبعه من

(١) راجع كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٨٣ وما بعدها .

المشكلة بين الألفاظ والمعاني، والتوافق الصوتي بين الحروف، والحركات والكلمات، وكأنه يوقر وقته جميعه "للصوت"، وهذا جل ما يعتمد عليه في شعره من جَوٍّ، وهو يطلق "الموسيقى" ويدعها تؤثّر في أعصاب المستمعين كما يريد ويشتهي^(١).

التصنيع والصنعة لدى "ابن المعتز":

"أبو العباس عبد الله بن المعتز"، ولد عام ٢٤٧هـ، وهو ابن الخليفة "المعتز بالله" الذي ولى الخلافة سنة ٢٥٢هـ، وكان "ابن المعتز" يتمتع بعيش ناعم مرفّه مع الشعراء والأدباء في خلافة "المقتدر"، فلما أفضت الخلافة إلى "المكتفي" انغمس في غمار السياسة، ومكايدها ولما تولى "المقتدر" ابن عمه سنة ٢٩٥هـ، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأقربائه، ومن حولها من السوء والخصيان التفّ حول "المعتز" الحائقون على الخليفة، وأوعز إليه جماعة من رؤساء الأجناد أن يتهيا للخلافة.

ثم خلعوا "المقتدر". ويأبى "ابن المعتز"، ولقبوه "المرتضى"، ولكنه لم يبق في كرسي الخلافة إلا يوماً وليلة. فقد تحزب أصحاب "المقتدر"، وتعاونوا على أعوان "ابن المعتز". فأعادوا "المقتدر" إلى الخلافة، واضطر "المعتز" للاختفاء، والالتجاء إلى "ابن الخصاص" التاجر الجوهري، ولكن "المقتدر" سرعان ما احتدى إلى مكمنه، فأخذه وسلّمه إلى "مؤنس الخازن" فقتله. وسلّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء في الأول من ربيع سنة ٢٩٦هـ.

وكان "ابن المعتز" يمعن في تقليد مذاهب القدماء في الشعر، وكان أيضاً متأثراً بـ "أبي نواس" إلى حد كبير، ويبرز في صور شعره وتشبيهاته ما كان ينعم به من ترف العيش ورفاهية الحياة^(٢).

وقد كان "ابن المعتز" حضرياً مترفاً عالماً، رأى من صور الحضارة ومشاهدها ما لم يره "البحتري"، لذلك أجاد في التشبيه، وانصرف إليه، وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً، وضِعوا، وظرفوا، وتصرفوا في سائر الآداب، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية، وغزل

(١) ذاته ص ١٩٩.

(٢) تاريخ الأئمة العربى - كلر بروكلمان ٥٢/٢ وما بعدها.

الظرفاء، وهلهة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجتهدين، ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك.. وإن من يتبع صنع "ابن المعتز" يجدها قد فاضت بأصباغ الزخرف الحسي الذي لم يغص في بحار الفلسفة والثقافة، ولم يعقد بمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض آخر، على نحو ما هو عند "أبي تمام"، بل يزجها بمجموعة دون اتحاد أو امتزاج، وهى مع ذلك تفيض رقة، وتسيل عذوبة، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها، وأجلها، اقرأ قوله يُجَانِسُ:

بِأَدَارِ أَيْنِ ظَبَاوُكِ اللَّعَسِ قَدْ كَانَ لِي فِي أَنْسِهَا أَنْسُ
وقوله يمدح "المكتفي بالله":

بِالْمَكْتَفِي كَفَى الْأَنَامَ سَمُومَهُمْ وَغَدَا عَلَيْهِمْ طَالَعُ سَعُودِ^(١)
وكان "ابن المعتز" شاعراً مُجِيداً، غير أنه كان أميراً مترفاً، ولم يتح له ترفه أن يتعمق الثقافة والفلسفة، وهو كذلك لم يتعمق وسائل التصنيع الحديثة، فإنه لم يعرف العمق في شئ، وليس معنى ذلك أن "ابن المعتز" كان من ذوق الصانعين، فقد كان من ذوق المصنعين، فالتصنيع والزخرف أساسيان في حياته، وهما كذلك أساسيان في فنه، ويحدثنا صاحب "الأغاني" أنه بدت فيه منذ نشأته نزعة إلى الغناء والموسيقى، ضاعفت حسه بالجمال، كما ضاعفها ترفه ونعيمه، وليس من شك في أن من يعيش مثل هذه المعيشة لا يمكن أن يكون ذوقه بسيطاً، فالترف لا يتيح بساطة في الحياة، بل هو يتيح ضرباً معقداً من التصنيع في شئونها.

والحق أن التصنيع كان مادة أصلية في حياته، وسرى منها إلى فنه، فهو يعيش في شعره كما يعيش في حياته معيشة تعتمد على التأنى والتنميق.

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية ص: ١٠٤ وما بعدها.

وكان "ابن المعتز" شاعراً مصنعاً من أصحاب مذهب التصنيع، وكان يعجب بهذا المذهب إعجاباً شديداً دعاه إلى أن يكتب في أدواته ورخفه كتابه "البديع"، وهو يشهد له بأنه كان فتاناً عالماً بحسن وضع المصطلحات الفنية^(١).

(١) الفن ومناهجه في الشعر العربي ص ٢٦٥ وما بعدها.